أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ
بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنْ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٨ ، السنـــــة : ٤٤

شعبان ١٤٤١هـ ، أبريل ٢٠٢٠م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

نـور عالـم خليـل الأميـنـي
أستاذ الأدب العربي بالجامعة

مساعد التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة : ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولاراً
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولاراً

عنوان المجلة على الانترنت
Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس تحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- سَلْ أيّ سمٍّ يَنْفُثُ الإعلامُ — التحرير — ٣

كلمة العدد

- المسلمون في كل زمان ومكان مُطَالَبُون بمقاومة الظلم والعدوان، رغم «الألم» الذي يُصِيبهم — نور عالم خليل الأميني — ٤

الفكـر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- أسس انطلاق الحضارة الإسلامية — الأستاذ الدكتور عباس الجواري — ١٤
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٩
- المؤذن الأول للرسول ﷺ ونبذ العنصرية والطبقية — الأستاذ محمد الدواس — ٢٢
- تأثير القرآن الكريم في إصلاح المجتمع المعاصر — الأستاذ رفيع الدين حنيف القاسمي — ٢٥
- عقود الامتياز في الفقه الإسلامي المعاصر — الأستاذ عبد الوهاب سلطان الدّيروي — ٣٠
- ثمرات الأخوة — الأستاذ محمد حسين يعقوب — ٣٤
- التربية بالثواب والعقاب — الدكتور عبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد — ٣٧
- السرف — الأستاذ عبد الله بن إبراهيم الطريقي — ٤٣
- آداب الطب في التراث العربي الإسلامي — الأستاذ الدكتور سليم عمار — ٤٧

محليـــــات

- أمريكا تعرب عن قلقها على أوضاع الحرية الدينية في الهند مسؤول رفيع المستوى في الخارجية الأمريكية يجتمع بوزير .... — أبو عاصم القاسمي المباركفوري — ٥٢

أنباء الجامعـة

- النادي الأدبي يعقد لقاءً ختاميًّا في رحاب الجامعة — أبو فائز القاسمي المباركفوري — ٥٣

إشـراقـــة

- كسب القلوب فن لبق — أبو أسامة نور — ٥٦

كلمة المحرر

سَلْ أيّ سمٍّ يَنْفُثُ الإعلامُ

ظلت تتبنى وسائل الإعلام الهندية – باستثناء ما يُعدُّ منها على أصابع اليد الواحدة – خلال السنوات الأخيرة تسويق الكراهية والنفور بين مختلف فئات المجتمع الهندي وضد المسلمين بصورةٍ خاصةً تسويقًا لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه البلاد. فلا يمرُّ يوم من الأيام إلا ويبرز زعيم أو زعماء على شاشات القنوات ينفثون ضغائنهم ضدّ الإسلام، ويزرعون الكراهية و البغضاء ضد الأقلية المسلمة التي تواصل هي و جمعٌ عظيمٌ من أبناء الوطن، المنتمين إلى مختلف الأديان والأطياف الاجتماعية جنبًا إلى جنب– الاحتجاجاتِ ضد قانون الجنسية المعدل الجديد الذي أقلق مضاجع الملايين من سكان البلاد الذين يعيشون على أرضها ويتنفسون في جوها منذ قرون من الزمان.

وتسعى وسائلُ الإعلام هذه تغطيةً انحيازيةً تكاد تلمس بالبنان، وتستضيف لبرامجها المعَدَّة بكل دقةٍ و دهاءٍ – في معظم الأحوال– من الزعماءِ والمتحدثين أقلَّهم حياءً وأجرأهم على اختلاق الأكاذيب والافتراءات، ومَنْ لاَ هَمَّ لهم إلا النيل من الإسلام والمسلمين، والازدراء بهم، وإثارة الشكوك والشبهات في المواقف المشكورة التي وقفها ويقفها المسلمون عامتُهم و خاصتُهم من قضايا الدولة وتحريرها من أيدي الاستعمار الغاشم. والمتتبع لهذه الوسائل الإعلامية الموغِلَة في تأليب الفتن ليلَ نهارَ– يرى بأم عينيه أن مقدم برنامجها في كثيرٍ من الأحيان –بدلًا من التزام الحياد وقول الحق وتصوير الواقع– يتقمص دور المدافع عن فكرة حزب أو جماعة بعينها بلا حياءٍ ولاخجلٍ؛ يسوِّق أهدافها الساقطة، ويبث السموم والعداء، و يمثِّلُ الوسواسَ الخنَّاس الذي يوسوس في صدرو الناس، ويَنفث في عُقَدِ الجنسية والوطنية ليحلَّها ويفصِم عُراها عروةً وعروةً، وينقض غزلَها من قوةٍ أنكاثًا.

ومن أبشع مظاهر السباق بين وسائل الإعلام الهندية إلى زرع الكراهية ضد المسلمين ما شاهدناه في الانتخابات الإقليمية المنعقدة في الأيام الأخيرة في عاصمة البلاد: دهلي، حين دعا بعضُ الزعماء في الحزب الذي يقود الحكومة المركزية على مرأى ومسمع من الشرطة والجهاز الإداري– إلى إطلاق النار على المحتجين والمعتصمين – ومعظمهم مسلمون– باعتبارهم خارجين على قوانين الدولة وبغاةً على نظامها؛ وطالَبَ بعضُهم بالضغط على زرِّ الجهاز الإلكتروني الخاص بإدلاء الأصوات ضغطًا عنيفًا يسري به التيّار بقوةٍ في أجساد المحتجين و المعتصمين في منطقة «شاهين باغ» بدهلي. وأمثال هذه المهازل والترهات والافتراءات التي دبَّرها ويدبِّرها أعداء الإسلام و المسلمين، لايدفعهم إلى ذلك إلا التعسف والتعصب الأعمى والحقد الدفين الذي يظهر واقعًا حيًّا حين تُتاح له فرصةُ الظهور.

فلابد للمسلمين أن يكونوا على علمٍ ومعرفةٍ دقيقةٍ بواقع الإعلام المأجور؛ فقد استشرى شرُّه واستفحل خطرُه، وهم – في كثير من الأحيان– لاهونَ عنه غافلون، وهو يسلك طرقًا خفيةً في التشهير بهم وتشويه سمعة دينهم الإسلامي، ولاتدري الأمة إلا وقد ضاعت شخصيتها، و زالت معاني أصالتها وقوتها.

سلْ من يربي بالمعازف جيلَنا سلْ أيّ سمٍّ ينفثُ الإعــلامُ؟

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين ٢١/جمادى الآخرة ١٤٤١هـ= ١٦/فبراير ٢٠٢٠م)

المسلمون في كل زمان ومكان مُطَالَبُون بمقاومة الظلم والعدوان، رغم «الألم» الذي يُصِيبهم

إذا درسنا الأحوالَ، وألقينا نظرةً على وضع العالم، وجدنا أن الأمة المسلمة بالمجموع تُقَابَل في كل مكان بالبغي يُصَبّ عليها، وبالألم تُصَاب به من كل جانب. وتلك حالة مَدَحَها الله تعالى فيها إذا انتصرت أي انتقمت من الباغي من أيّ نوع كان، فقد نصّ الله تعالى أنه من صفات المؤمنين أنهم يتوكّلون على ربّهم، ويجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويغفرون لدى الغضب، ويستجيبون لربّهم، ويقيمون الصلاة، ويمارسون أمور دينهم ودنياهم صادرين عن مشورة فيما بينهم، وينتصرون إذا أصابهم البغي وناهم الجور والعدوان:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٦-٣٩).

ومعنى «الانتصار» هو الانتقام، والفوز بالنصر، وتحقيق الظفر والغلبة.

فالآية تعني أن المؤمنين إذا أُصِيبُوا بالظلم والتعدّي، يدفعونه عنهم بتحقيق الظفر وإنجاز الغلبة والانتصار، وينتقمون من المُتَعَدِّي عليهم بنصر الله عزّ وجلّ، الذي يعين المظلومين المُتَعَدَّىٰ عليهم، ويُدْرِكُهُمْ بإعطاء الغلبة والظفر.

هذه الآية بشارة للأمة في هذا الوضع الخطير الذي تعيشه؛ حيث يصيبها البغيُ في كل مكان، وتُقَابَلُ بالاعتداء والظلم المتناهي، وتُلَاحَق بكل من التعذيب الجسدي والعقاب النفسي بشكل متّصل، كأنّ ذلك هو نصيبُها المُقَدَّر، وحَظُّها المقسوم. وقد يصيب هذا الموقفُ العصيبُ كثيرًا من أفرادها باليأس والإحباط، فيقولون بلسان الحال والمقال معًا: متى نصرُ الله؟!، وكأنّ سنة الله في خلقه وعباده تُؤَكِّد لهم: ألا إن نصر الله قريب. وكان

مـن سـنة الله دائـمًا أنـه يـدفع الظلـمَ لا مَحَالَـةَ، ويسحق المعتدين الباغين المُدْمِنِين للعدوان؛ لكننا نحن البشر المخلوقين ضعفاء نستعجل ذلك كاستعجالنا كلَّ شيء في الحياة؛ لأننا خُلِقْنا عجولين، فلا نتريّث ولا نتأنّى، وإنما نودّ أن يتمّ كلّ شيء عاجلًا وفي الوقت القياسي الذي نقدّره نحن، متغافلين عن أن من سنة الله أنه لا يَدَعُ الباغين دون أن يخزيهم في الدنيا قبل الآخرة؛ حيث قد يُمْهِلُهُمْ ولكنه لا يُهْمِلُهُم.

فالبغي الذي يصيبنا اليوم لابُدَّ أن ننتصر فيه على الباغين المعتدين، ولابدّ أن نُوَفَّق أن ننتصر منهم أي ننتقم منهم بإذن الله، وأن ننتصر للحقّ والعدل اللذين نُمَثِّلُهُمَا؛ لأنّ الآية الكريمة تُؤَكِّد أن الله العلي القدير قد وعد للمؤمنين المَبْغِيّ عليهم، بإكرامهم بالانتصار والغلبة. والآيةُ لا تخبر فقط بأن هذا الواقع سيتحقق، وإنما هي تذكر كذلك الوعد الإلهي الذي يتحقّق رغم كره الكارهين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي سينتصرون للعرض الذي دِيسَ، وللكرامة التي سُلِبُوا إيّاها، والحق الذي اغْتُصِبَ منهم، والحرمة التي انْتُهِكَتْ، وللأرض التي حُرِمُوا إيّاها، والأمن الذي أُفْقِدُوا إيّاه، وحياة العز والإباء التي أُبْعِدُوا عنها، والوطن الذي شُرِّدُوا منه.

ولكنّ الشرطَ الأساسيَّ أنْ يعتصموا بالإيمان، ويتمسّكوا بالثقة بالله والتوكّل عليه؛ لأنّ الوعد بالانتصار والغلبة إنما هو للمُتَّصِفِين بالإيمان، للعاملين بمقتضاه، للمجتنبين الفواحشَ والآثامَ، للمقيمين الصلاة، للمستجيبين لربهم في جميع الأوامر والنواهي، للكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس، للمتوكلين على الله، الواثقين بأنه هو الذي بيده النصر والغلبة، والعزّ والذلّ، المبادرين إلى امتثال الأمر الإلهي بابتغاء الباغين، وملاحقة الظالمين، دون استجمام من أجل «الألم» الذي يكون قد أصابهم؛ لأن الألم لم يصبهم وحدهم، وإنما أصاب الباغين المعتدين كذلك، فلم يستكينوا ولم يفتروا عن محاربة المؤمنين، على حين أنهم لا يرجون من الله ما يرجوه المؤمنون منه، من الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، والعزّ المكين:

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤).

إذا كان الأعداء – صليبيين وصهاينة و

وثنيين بأنواعهم وألوانهم – رغم كفرهم بالله، ويأسهم من ثوابه، لا يضعفون عن مقاومة المؤمنين الراجين جزاءَ الله، والواثقين بنصره، فأنى يجوز للمؤمنين أن يقعدوا عن مقاومتهم، وعن القعود لهم بكل مرصد. لايجوز لهم ذلك أبدًا وقد وُعِدُوا بالغلبة والعزّ في الحياة الدنيا والجزاء الموفور المذخور في الجنة، التي عرضها السماوات والأرض، فلا فتورَ مع الرجاء، ولا وهنَ مع الثقة، ولا تكاسل مع الإيمان بالوعد الربّاني بالحسنيين المُتَمَثِّلَتَيْن في العزّ والتمكين في الدنيا، والنعيم الخالد المقيم في الآخرة.

إننا نحن المسلمين قد نغفل عن قراءة الآيات والعبر، وإيحاءات التأريخ، واستيعاب الوعد الإلهيّ، واستحضار ما رصده الله جلّ وعلا للمحسنين المجاهدين في سبيله، الذين يهديهم لا مَحَالَةَ سُبُلَه، وينصرهم بالرعب، ويعينهم بجنوده المختفين في كلّ شيء في الكون: ناطق وصامت، ونابت وجامد، وحيّ وميّت، وصغير وكبير، وتافه وجليل:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح:٧).

لاشك أننا نُصَاب اليوم بـ«الألم» الذي لم يهتدِ إلى ممارسته الشياطين والأبالسة في الزمن الماضي: عهد ما قبل «العلم الحديث» و«التقدم التكنولوجي الخارق».. «الألم» بأنواعه التي لم يتصوّرها أعداءُ الله في الزمن القديم. فما صنعته بالأمس أمريكا في «غوانتانامو» من ممارسة التعذيب الرهيب مع الأسرى المسلمين الذي بعضُ صوره قد شاهدها كثير من ذوي ضمائر حية عبر التلفاز والصحف والمجلات والإنترنت، فلم يتمالكوا أنفسهم، وتفجّروا بكاءً وعويلًا، وكادت تتفطر أكبادُهم.

حقًّا إننا نصاب اليوم بكل نوع من «الألم» ولكن أعداء الله هؤلاء ليسوا بمنجاة من «الألم». إن «الألم» بأنواعه يُطَارِدُهم في كل مكان، ويؤذيهم في كل موقف، ويئنّون من أجله بكل مناسبة، يطاردهم الخوف والذعر و اللاأمن والقلاقل والخسارة في الأرواح والممتلكات – وهم أحرص الناس على الحياة وأعبدهم للمال والاقتصاد.

إننا وإيّاهم سواء في «الألم» بل قد يفوقوننا فيه في الكيف – إن لم يفوقونا في الكم – الألم الذي منشؤه كفرهم بالله، وعدم ثقتهم به تعالى، وعدم رجائهم رحمتَه ورضوانَه، ونصرَه وغفرانَه، وأنه لا مولى لهم ولا وليَّ وناصرَ، وأننا نحن لنا مولى – وهو الله الواحد القهّار –

هو وليّنا وهو نعم المولى ونعم النصير:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾(محمد:١١)[1]

وإلى ذلك هناك فارق أساسيّ كبير شاخص بارز بيننا وبينهم، وهو أننا نرجو من الله – بتوفيق منه – ما لايرجون: من العزّ والتمكين، والغلبة والظفر، والسعادة في الدنيا، والجنة ونعيمها الذي لم يخطر من الإنسان على بال في الآخرة.

فلا يجوز أن نَهِنَ في ابتغائهم وملاحقتهم، ومطاردتهم كالكلاب، ولن يهن الأوفياء المخلصون المؤمنون، في امتثال هذا الأمر الربّاني، الضامن لنا كلَّ عزّ وفخار وانتصار وسعادة في كلتا الدارين، مهما وَهَنَ الجبناءُ الخونة الانهزاميّون.

لن يَهِنَ المؤمنون الصادقون في ابتغاء أعداء الله رسوله، المؤمنون المستجيبون لأمر ربّهم:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ (الأنفال:٦).

لَن يَهِنَ المُتَطَلِّعُون إلى هذا الإعداد للقوة المستطاعة، والعاملون عليه، والساعون في سبيله، والآخذون بكل حيلة من أجله، رغم كلّ العوائق المزروعة في هذه السبيل، من قبل الأعداء البارعين في نسج المكر، وإتقان الخداع، وإحكام فنّ ذرّ الرَّمَاد في العيون، وإحسان عمليّة تحويل الحق باطلًا والباطل حقًّا.

أجل، إن المؤمنين الصادقين لم ولن يتردّدوا في التمسك بهذا الأمر الربّاني، والعمل على تنفيذه، حتى يتمّ «إرهاب» أعداء الله ورسوله والمؤمنين. وكأن «الإرهاب» الذي ذكره الله تعالى وأمر بممارسته، أمر مقصود لديه تعالى، نافع كلَّ النفع في إرغام الأعداء، وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، وتسفيل كلمة الذين كفروا، وإيجاد الثقة في القلوب، والتأكيد للأعداء أن المؤمنين هم كذلك يُحْسِنُون الإعدادَ والتخطيط، والعملَ

(١) والآيات في هذا المعنى كثيرة: ١- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الأنفال:٤٠). ٢- ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨). ٣- ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ (آل عمران:١٥٠). ٤- ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾ (التحريم:٢).

وهناك آيات عديدة تنصّ على أن الكافرين لامولى لهم ولا نصير: ١- ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ (التوبة:٧٤). ٢- ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾(الحج:٧١). ٣- ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ (فاطر:٣٧). ٤- ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ (الشورى:٨).

بمقتضيات الاستراتيجية العسكرية، واصطناع المُعَدَّات التي تُجْدِي في كسب الحرب؛ وإلَّا فإن المؤمنين يعلمون أن «النصر» صناعة ربّانيّة ومبرّة إلهيّة، فلا يُنَال بقوة محضة، ولا يُصْنَع بتقنية مجردة، ولا يوجد بحيلة بشريّة وحدها، ولا يُنْشَأ بتكنولوجيا متطورة محضة، ولا بتفوّق حصاريّ، وتقدّم علميّ صنعه الإلحادُ، وغَذَّاه البغيُ، وتَعَهَّدَه بالسقي والريّ والتسميد العدوانُ والظلمُ المُتَنَاهِي، والشعور البالغ بالعلوّ والاستكبار:

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم:٥).

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (آل عمران:١٢٦).

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ١٣).

إن النصر لايتأخر ولا يتخلّف ولا يتعثّر في شأن المؤمنين بالله ورسوله، الملتزمين مبادئَ ربّهم، المُتَأَكِّدِين من أنّ الموت يخاف كلَّ مؤمن لايخاف الموتَ، ويُخِيف كلَّ منافق جبان متذبذب متراجع يرهب الموتَ ويحذره، ويتحفّظ منه، ويتّخذ كلَّ تدبير لوقايته، فيسدّ كلَّ منفذ يهجم منه الموت عليه، ويتسلّل منه إليه.

إنّ النصر لا يتنزّل على الواهنين في ابتغاء عدو الله وملاحقته، المتشبثين بالأعذار، المتعلّلين بفعل الأقدار، المتمسّكين بالمبادئ المُصْطَنَعَة من «الواقعيّة» و«المرحليّة» و«التكتيكيّة» و«الهبوب مع الرياح» و«مجاراة الظروف» و«مماشاة الملابسات القاهرة» و«ما يجب أن يعمل به المُسْتَضْعَفُون».

إنّ الآية «لاتهنوا في ابتغاء القوم» لم تترك عذرًا لمعتذر، ومفرًّا لمحتال، فلا بُدَّ أن يواصل المؤمنون في كلّ زمان ومكان وظرف وملابسة ابتغاءَ القوم: أعداء الله ورسوله وملاحقتهم ومقاومتهم، بكل ما يجدونه من عُدَّة وعتاد، لأنّ الصراع بين الحق والباطل لن ينتهي إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها، فالمسلمون مُطَالَبُون بمقاومة الظلم والعدوان والبغي على الله، رغم الألم الذي يصيبهم، والجرح الذي يؤذيهم، والخسارة التي تلحقهم في النفس والمال.

نور عالم خليل الأميني
nooralamamini@gmail.com

(تحريرًا في الساعة الثانية عشرة من يوم السبت: ٢٩/جمادى الأولى ١٤٤١هـ الموافق ٢٥/يناير ٢٠٢٠م).

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري

لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

فائدة:

(وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ) أي ليس أهل الكتاب كلهم سواسي، فمنهم صالحون، وبين هؤلاء الأشقياء الممسوخين أرواح سعيدة، وفقها الله تعالى لقبول الحق، والدخول في الإسلام، فاستقاموا على جادة الطريق استقامة لن يزلزل أقدامهم منها شيء، يعرضون عن النوم العميق، و تتجافى جنوبهم عن المضاجع في ظلمات الليل قائمين بين يدي الله تعالى، يخضعون له ويتضرعون إليه ويتذللون له، ويضعون جباههم على الأرض، ويتلون كلامه في الصلاة، ويؤمنون بالله وباليوم الآخر إيمانًا صادقًا، يوحِّدون الله تعالى حق التوحيد، ويخافون يوم الحساب، ويسارعون إلى الخيرات إذا نُدِبوا إليها، وهم على الطريق المستقيم؛ ويرغبون أن يأخذوا الناس إليه، فلاشك أن بين هؤلاء اليهود أناس رزقهم الله تعالى حظًّا وافرًا من السعادة والصلاح والرشد. وهم عبد الله بن سلام وأصحابه.

وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

فائدة:

(فَلَنْ يُكْفَرُوهُ)

بل لهم الأجر مرتين، كماقال تعالى في آية أخرى: (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)[٥٤]، وورد عن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- بيانه في الحديث الصحيح.

فائدة:

(وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

وعليه يستثني الله تعالى هؤلاء المتقين حين يرد ذكر اليهود، ويعاملهم في الدنيا والآخرة على قدر تقواهم معاملة خاصة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ الٓمٓ ﴿١﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

فائدة:

(فَأَهْلَكَتْهُ) وبإزاء الصالحين والمتقين ذكر في هذه الآية حال الكفار ومآلهم، وقال سابقا: (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ) أي ستنفع حسنة المؤمن وإن قلَّت، ولن يكفروا خيرا أتوه. وعلى العكس من ذلك ما ينفقه الكافر في الدينا من مال وقوة، وإن ظنه خيرًا وأجرًا، لايقام له في الآخرة وزن وقيمة. فإن أعماله كلها لاحياة فيها لفقدها روح الإيمان والمعرفة الصحيحة، فلاينال جزاءه وثوابه إلا في هذه الدنيا الفانية الزائلة، وإنما يحفظ العمل الإيمان واليقين، ومثل الإيمان بدون ذلك كمثل ظالم شرير زرع الأرض أو غرس الحديقة، ولم يتخذ ما يصونها من البرد، فأعجب بنباتها ورونقها أياما معدودة، وعقد فيها آمالا طويلة، فهبت عاصفة باردة ونزل البرد بسبب شره وشقائه، حتى أحرق زرعه الأخضر وحديقته الغناء كلمح بالبصر، فأصبح يقلب كفيه على خسارته الشاملة، فلم تتحق الآمال، ولا انتفع بثمرها حين الحاجة إليها. وبما أن هذا الهلاك والدمار جلبه ظلمه وشقاؤه، فلم يؤجر على ما أصابه في الآخرة. كما يؤجر المؤمن. وهذا هو مثل الكفار الذين يستمرون على الكفر والشرك ويظنون أنهم يحسنون صنعًا، ويفعلون الخيرات في زعمهم، وأما الأشقياء الذين لاينفقون قوتهم وأموالهم إلا في معاداة الحق وأهله، أو في الفسق والفجور فلاتسأل عنهم. فهم ينفقون في غير وجه؛ بل يشترون لأنفسهم وبالا أكثر بإنفاق المال، ولايغيبن عن بال هؤلاء أن المال أو الولد لايمنع شيئا من عذاب الله تعالى، ولاتتحقق آمالهم كما تتحقق آمال المتقين.

تنبيه:

الريح بالإفراد وردت في القرآن الكريم في العذاب عامة، منه قوله تعالى: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الأحقاف:٢٤]، وقوله تعالى: (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا) [الروم:٥١]، و قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا)[القمر:١٩]، وأما بلفظ الجمع فورد في الرحمة، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ) [الروم:٤٦]، وقوله: (وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا) [النمل:٦٣].

فائدة:

لايظن ظان أن الكافر لايقبل منه حسنة، فكان ظلما من الله تعالى إياه، وذلك لأنهم هم ظلموا أنفسهم، فماكانوا يصيرون إلى هذا المصير لو لم يكفروا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

فائدة:

هذه الآيات قيل: نزلت في قوم من المؤمنين

استمروا على ما كانوا عليه فكانوا يصافون اليهود، ويواصِلونهم لما كان بينهم من الجوار والحلف، وغيرهما، وثقةً بصداقتهم كانوا لايعنون بإخفاء ما يجري بين المسلمين من المشورة الخفية عن اليهود. وقيل: نزلت في المنافقين؛ لأن الناس كانوا لايتخذون حذرهم كما ينبغي؛ لأن عامة المسلمين كانوا يرونهم مثلهم، فخيف الضرر الشديد منهم. فنبه الله تعالى في هذه الآية بصراحة ووضوح وحذرهم من أن يتخذوا غير إخوانهم بطانةً ومداخلًا لهم وأمينًا على أسرارهم؛ لأن اليهود أو النصارى أو المنافقين أو المشركين ليس أحد منهم ناصحا لكم في الواقع. وإنما يسعى هؤلاء ليلعبوا بعقولكم، ويضروكم، ويعرضوكم للفساد في دينكم و أخراكم، ولا يريدون بكم إلا ما يؤذيكم، ويضركم في دينكم ودنياكم بصورة أو أخرى، وما في صدورهم من العداوة والشحناء والضغينة أشد وأعظم. وقد تنطلق ألسنتهم مغلوبين عدواةً وغيظًا عليكم بمثل هذا الكلام الصريح الواضح الذي ينم عن عداوتهم وبغضائهم التي تنطوي عليها صدروهم. فلايملكون ألسنتهم عداوة وضغينة. فليس للعاقل أن يتخذ من أمثال هؤلاء الخبثاء الطوية بطانةً ومداخلًا له، يفضي إليه بأسراره. قد بين الله تعالى العدو والصديق، وأحكام الموالاة بيانًا شافيًا واضحًا، فيتعظ به من كان له قلب. (سبق بعض التفاصيل حول موالاة الكفار في هذه السورة، وسيأتي بيان بعضها في سورة المائدة بإذن الله تعالى).

هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

فائدة:

أي ما أظلم أن تكثروا من الثناء العاطر عليهم، وليسوا أصدقاء لكم، وإنما هم أعداء لكم يريدون قطع دابركم، ومن الطريف أنكم تؤمنون بالكتب السماوية كلها، إلى أي أمة وفي أي زمان، وعلى أي نبي نزلت (بعينهم ممن سماهم الله تعالى، وإيمانا مجملا بمن لم يسمهم سبحانه تعالى) وعلى العكس من ذلك هؤلاء لايؤمنون بكتابكم ونبيكم، بل ليسوا مؤمنين حقًّا حتى بكتابهم، فكان المطلوب أن يحبوكم، وتكرهوهم أيما كراهية، والأمر على العكس من ذلك.

فائدة:

كان المنافقون يقولون ذلك، وحتى اليهود والنصارى كانوا يقولون في مباحثتهم وحوارهم مع المسلمين: آمنا. وكانوا يحملون ذلك على أنهم يؤمنون بكتبهم، ويعترفون بها.

فائدة:

أي كانوا على أشد من الجمر حين ينظرون إلى رقي الإسلام وازدهاره وما عليه المسلمون من المودة والحب. وكانوا مغلوبين على أمرهم، فيشتاطون غضبًا ويعضون عليكم الأنامل من الغيظ.

فائدة:

أي أن الله تعالى سيزيد الإسلام والمسلمين رقيًّا ونصرًا، فموتوا بغيظكم، ولن تتحقق آمالكم ولواستمتتم في ذلك. وإن الله تعالى سيجعل كلمة الإسلام هي العليا.

فائدة:

ولذا أطلع الله تعالى المسلمين على باطن أمر هؤلاء الأشرار وما في قلوبهم من النزعات. وعاقبهم بما يناسب شرورهم الباطنة وعداوتهم الخفية الكامنة.

إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

فائدة:

لايرون فيكم خيرًا كوحدة كلمتكم أو غلبتكم على الأعداء إلا احترقوا بنار الحسد، وإذا أصابتكم مصيبة طاروا فرحًا وسرورًا، فهل يرجى من مثل هذه الأمة اللئيمة نصحٌ وخيرٌ حتى يلقى إليهم بالمودة؟

فائدة:

قد يخطر ببال أحد أن المسلمين إذا لم يلقوا إليهم بالمودة والصداقة، فإنهم يزدادون غيظًا وينسجون الدسائس ضدهم. ويحاولون إضرارهم أكثر فأكثر؟ فالجواب عنه: عليكم الصبر والاستقامة والتقوى والطهارة، وإذًا لايضركم كيدهم شيئًا، والله تعالى عليم بما ينسجون من المكايد. وهو قدير على أن يبطلها، فأحسنوا معاملتكم مع الله تعالى، وستزول الأشواك كلها عن طريقكم إذا فعلتم ذلك. ثم ذكرهم فيما يأتي بيوم أحد، فقد تأثر بعض المسلمين فيه بإغواء المنافقين، وكادت قبيلتان منهم أن يفلتهم الصبرُ والتقوى فيشمط بهم المنافقون، ولكن الله تعالى نصركم، وأنقذ القبيلتين من العثرة المردية.

وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

فائدة:

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) هذه الآية تذكر بيوم أحد، وذلك أن جيش قريش وجيش المسلمين التقيا في شهر رمضان من عام ٢هـ، فقتل سبعون من صناديد الكفار، و أسر مثلهم. فاشتعلت نار الثأر في قريش عقب هذه الهزيمة المدمرة والمخزية، وأثار أقارب الصناديد المقتولين غيرة العرب، وأهابوا بأهل مكة إلى أن ينفقوا أموال القافلة التجارية التي جاء بها من الشام في هذه المهمة (لأن هذه القافلة هي التي تسببت في نشوب غزوة بدر) وذلك ليثأروا قتلاهم من محمد وصحبه، فوافق عليه الناس جميعًا، فخرج قريش ومن معها من قبائل العرب في السنة الثالثة من الهجرة ليغزوا المدينة، حتى خرجت معهم

النساء، لتثرن غيرة الرجال ويمنعنهم من الهزيمة إذا دعت الحاجة إليه. وخيم هذا الجيش المدجج بالأسلحة والعتاد و الذي كان قوامه ثلاثة آلاف نفر قرب جبل أحد على ثلاثة أو أربعة أميال من المدينة. فاستشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين. وكان يرى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الإقامة بالمدينة ومواجهة الكفار من داخلها أيسر وأوفق. وأيد ذلك رؤيا رآها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وذلك أول مرة استشير فيه رئيس المنافقين عبد الله بن أبي، وكان وافق رأي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أن بعض المسلمين المتحمسين الذين لم يتمكنوا من شهود بدر، وكان يحدو بهم الرغبة في الجهاد إلى الإصرار على الخروج من المدينة ومواجهة الكفار خارجها، وذلك مخافة أن يراهم العدو قد جبنوا وضعفوا، وإلى هذا الرأي ذهب معظم الناس، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حيص وبيص ودخل بيته، ولبس لأمته، فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا، فقالوا: بئس ما صنعنا، قد أشرنا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخروج من المدينة وقتال الكفار على خلاف رأيه، فقالوا: يارسول الله، إذا كنت لاترى ذلك فأقم في المدينة، وقاتلهم إذا دخلوا عليك. فقال الرسول ﷺ: لاينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة ومعه ألف رجل، ثم انخذل عبد الله بن أبي بثلاث مئة من أصحابه (وبعضهم مسلمون) من الطريق وقال: «علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا، ولم يؤخذ برأينا. فنصحه بعض الناس دون جدوى، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميدان الوغى بسبعة من المقاتلين، وتولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترتيب صفوف المقاتلين ترتيبًا عسكريًّا، وأقعد كل كتيبة في مكانها المناسب، وقال لهم: لاتبرحوا مكانكم حتى آذن لكم به. ولايقاتل أحد. وضعفت قبيلتان من المسلمين عن الحرب بعد انخذال عبد الله بن أبي، وهم بنو حارثة وبنوسلمة. نظروا إلى قلة عدد المسلمين فأصابهم الضعف والجبن، وهموا أن يفشلوا من ميدان الحرب، ولكن الله تعالى نصرهم وأخذ بأيديهم وقوى قلوبهم، وألقى في روعهم أن على المسلمين أن يعتمدوا على نصر الله تعالى وعونه. وأما العدد والعتاد فلا وزن لهما. فإنه سبحانه إذا أراد نصر القوم فلاينفعهم العتاد، ويتحقق الفتح المبين بتأييد من الله تعالى، كما وقع ذلك يوم بدر. فليتق المسلمون الله تعالى وحده، ليزدادوا نعمة منه سبحانه وشكرًا له من قبلهم. (وسيأتي تفاصيل غزوة بدر كلها في سورة الأنفال، فارجعوا إلى الفوائد المذكورة في تفسيرها).

تنبيه:

المراد بالطائفتين: بنو سلمة وبنوحارثة، وإن كانت هذه الآية عاتبتهم، ولكن يقول بعض كبارهم: ما وددنا ألا تنزل هذه الآية؛ فإن ما في قوله: (وَ اللهُ وَلِيُّهُمَا) أعظم من العتاب.

* * *

* *

أسس انطلاق الحضارة الإسلامية

بقلم: الأستاذ الدكتور عباس الجواري(*)

إن الحضارة الإسلامية بناء متماسك ومتألق. وهي بهذا الاعتبار قائمة على أسس قوية ومتينة. وما أحوج المسلمين اليوم وهم قانعون بالإشادة والتغني بها أو البكاء والنحيب عليها – أن يبحثوا في هذه الأسس لمعرفة حقيقتها وإدراك عمقها، حتى إذا ما تمثلوها واستوعبوها، أمكنهم التشييد عليها والقيام بالدور الذي هم مطالبون به، والذي به يتابعون إكمال ذلك البناء بتجديده والإضافة إليه.

وحتى توضع تلك الأسس في مكانها الحق، نرى ضرورة التقديم بالنقاط التوضيحية الآتية:

أولاً:

فيما يتعلق بمفهوم الحضارة، لا نقصد تلك المظاهر المادية التي غالبًا ما تطرح في مقابل ظواهر أخرى فكرية أو ثقافية، ولكن نعني الحضارة في مدلولها الواسع الذي يشمل هذه الظواهر وتلك المظاهر، بكل ما يرتبط بها من مفاهيم ورؤى وتصورات يعيش في نطاقها الفرد والمجتمع. وهي بالنسبة للأمة الإسلامية تنبعث في معظمها من الدين الذي كان له أكبر الأثر في وجودها وتكييف ما كان موجودًا منها بروحه.

ثانيًا:

إن عمر الحضارة أو الحضارات المعروفة يمتد نحوًا من خمسة آلاف أو ستة آلاف من السنين، بدءًا من الحضارة المصرية التي شهدت ازدهارًا في الألف الرابع قبل الميلاد. وإنه في الإمكان أن ينظر إلى هذا العمر بالقياس إلى وجود الإنسان، ويظن أنه بدأ قبل زهاء مئة ألف عام، وكذا بالقياس إلى الحياة عامة، ويذهب التخمين إلى أنها مستمرة منذ ما يقرب من ثماني مئة مليون سنة.

ثالثًا:

في هذا السياق الحضاري الإنساني، تتدرج الحضارة الإسلامية مشكلة حلقة متميزة داخله، أو لعلها في المسيرة الحضارية الطويلة، تعد محطة ذات ملامح تعطيها خصوصيتها، إلى جانب محطات أخرى سبقتها، كالمصرية والآشورية واليونانية، لها هي كذلك خصوصيتها، مما يحث على عدم عزل الحضارة الإسلامية عن غيرها في تلك المسيرة.

رابعًا:

من هنا يمكن الحديث عن أجيال من الحضارة، تبرز داخل كل جيل فيه دول تكون

(*) عضو أكاديمية المملكة المغربية.

بمساهمتها ومعالمها دورة ذات طابع تضيف بمدى تفرده ما تغني به المسار، كما تبرز داخله أقاليم يكون لها بعطائها البيئي الطبيعي والبشري ما يزيد في إغناء هذا المسار.

خامسًا:

لقد أعطت الحضارة الإسلامية المسلمين ولجميع أبناء الإنسانية الكثير مما أفادهم في مختلف المجالات العلمية والفكرية والأدبية والفنية والصناعية، وفي جميع ما تتكون منه الحضارة حسب المفهوم الذي أسلفنا. وهي بهذا ذات وجود حقيقي وثابت يشهد له حتى الخصوم والأعداء.

إذا أردنا بعد هذا أن نحدد المنطلقات التي تحفزت منها الحضارة الإسلامية لبلوغ الأوج الذي أدركته، وجدنا إمكان تركيزها في خمسة أسس:

الأول:

يكمن في طبيعة المعرفة التي جاء بها الإسلام، سواء من حيث النمط أو المنهج، ويخطئ كل من يزعم غيبية هذه المعرفة وابتعادها بذلك عن الحياة والناس وواقعها المحرك للحضارة. إنها على العكس من هذا الزعم، وعلى غير ما كانت عليه المعرفة اليونانية القائمة على التجريد والمثالية، لم تضع في متاهات الغيب، لسبب رئيسي، هو أن الإسلام حين تعرض لهذا الغيب، عرضه من خلال قضايا قدم لها حلولها حتى لا يضيع المسلمون في تلك المتاهات، بل حتى لاينشغلوا بالماوراء الذي يتجاوز ما يشاهدونه بأبصارهم ويدركونه بعقولهم، وحتى يتاح لهم أن يتعاملوا مع أنفسهم ومجتمعهم والكون من حولهم، بواقعية تجعلهم يعملون وينتجون.

وكان لابد لهذا النمط المعرفي الذي جاء به الإسلام أن ينعكس على المناهج التي توسل بها المسلمون في إبداع هذا النمط وتفسيره وتحليله، معتمدين على التمرس العملي القائم على الأدوات الإجرائية الملموسة والمحسوسة، فكان أن تطور البحث العلمي في مختلف الشعب والتخصصات التي ينهض إنتاج المسلمين فيها دليلًا على المستوى العالي الذي بلغوه في مضمار العلوم النظرية والتجريبية والتطبيقية والتأملية.

الثاني:

ينبعث من القيم والمبادئ السلوكية التي طبعت فكر المسلمين وميزت تصرفاتهم، والتي ظهرت آثارها جلية في حضارتهم. وقد انطلقت هذه القيم والمبادئ من ركيزة هي دعامة المنهج العلمي الإسلامي وروحه، وتتجلى في التقوى، بوصفها قيمة تبعد عن الأهواء والشهوات والنزوات والأغراض، مما يجعلها مفتاح ما يسمى اليوم بالموضوعية العلمية والنزاهة الفكرية.

لم يقتصر تأثير هذه القيم وغيرها على الجانب المعرفي، ولكنه تبلور في كل المرافق التي خاض المسلمون غمارها، وفي جميع النظم والقوانين التي أقاموا عليها معاملاتهم وعلاقاتهم السياسية

والاقتصادية والثقافية والاجتماعية سواء فيما بينهم أو مع غيرهم، لافرق في ذلك بين حال السلم أو حال الحرب.

الثالث:

يبرز في الشمولية التي وسّع المسلمون بها آفاق منظورهم، والتي يمكن تلمسها في جوانب كثيرة تكفي الإشارة منها إلى بعض الثنائيات المتناسقة في الحضارة الإسلامية، كالجمع بين ما هو مادي وروحي، أو كما يقال بين ماهو دنيوي وديني، مما تفردت به هذه الحضارة. ومثله التوفيق بين الفردي والجماعي، في مراعاة الإنسان من حيث هو كائن له شخصيته وكرامته، وله مطالبه القائمة على العدل والإحسان، وله كذلك التزاماته، أي من حيث حقوقه وواجباته وما سيحاسب عليه، إذ هو لايعيش منعزلًا أو منزويًا بذات أنانية، ولكن في إطار مجتمع تسوده الأخوة والمحبة، ويطبعه التكافل والتضامن. ولعل من أهم الثنائيات التي تميز حضارة الإسلام تأليفها بين ما هو نافع وما هو ممتع، في مختلف شؤون الحياة واهتمامات الناس فيها. فالعناية بالعلوم الشرعية والطبية وما يماثلها مما لايخفى نفعه لم تحل دون رعاية الآداب والفنون وما إليها مما يهذب الذوق ويرهف الحس ويطرب النفس.

ويمكن الإشارة في سياق هذه الثنائيات إلى الالتقاء الدقيق بين السلطات التي توجه المجتمع الإسلامي وتحكمه، وفي طليعتها السياسية والثقافية، أو ما عبر عنه في التراث الإسلامي بصنف الأمراء والعلماء، إلى حد ورد أنهما إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس.

الرابع:

يتمثل في التفتح، وبدءًا من سماحة الإسلام النابعة من وسطيته ويسره، ورفضه للتطرف والغلو، وبعده عن العنف والإرهاب، إلى تسامحه الذي يحث على قبول الآخرين المختلفين، سواء أكانوا مع المسلمين في بيئتهم أو في بيئات أخرى، ومحاورتهم والتعايش معهم والتساكن وتبادل المصالح والمنافع، وما إلى ذلك مما لخصه الإسلام في كلمة جامعة هي «التعارف»، وهو مالا يمكن تحققه بغير الجنوح للسلم.

ويظهر التفتح في تجاوز الجنس أو العرق بين المسلمين، طالما أن الهوية في أقوى مقوماتها وأبرز مكوناتها هي الإسلام، إذ لافرق بين عجمي وعربي إلا بالتقوى. وإنه ليكفي الإدلاء بدور الفرس والترك والبربر وغيرهم من الشعوب، ومساهماتهم الكبيرة في الحضارة الإسلامية، لإثبات مدى أهمية هذا التجاوز الذي يتعدى الإنسان إلى المكان والزمان، فلا يعترف بأي إقليمية أو أي فترة إلا في نطاق ما يكون لها في مجال الخير الذي يُسدى للأمة كافة.

ويمكن إضافة تجاوز الانغلاق النفسي

والفكري وما قد يتولد عنه من عقد ومركبات كان المسلمون الأوائل متحررين منها، مثلما كانوا متحررين من أي شعور بالدونية أو أي إحساس بالنقص، مما جعلهم يقتبسون ما رأوه مناسبًا لهم وصالحًا في شتى ميادين الحضارة، ويطورنه ويكيفونه مع حاجاتهم ومتطلباتهم، ويفعلون ذلك من موقع القوة، وبوعي وحرية، ويحلون بذلك جميع المعادلات الصعبة التي واجهتهم.

الخامس:

ما توافر من استقرار في جميع أبعاده، وما تقتضي من أمن، بدءًا من القوة السياسية إلى التفوق الاقتصادي والفكري، فازدهار الحياة الاجتماعية عامة، وتمتع المواطن فيها بحريته وكرامته وجميع حقوقه، وكذا بأدائه لكل واجباته. وهو وضع جعل المسلمين – حتى حين تغيرت مراكز قيادتهم وتعددت – يقفون في مكان قوة وإحساس بالذات والكيان، ويفرضون على غيرهم أن يحترمهم ولايجرؤ عليهم بمناورة أو تآمر، فضلًا عن الاعتداء.

ولاشك أنه كان لهذا الاستقرار أكبر الأثر في ظهور الحضارة الإسلامية ونهضتها، مما لم يكن ليحدث في جو القلاقل، والاضطرابات والنزاعات والحروب التي لاتنتج غير الفقر والقهر والهيمنة والتسلط والخراب والدمار. وهذا ما جعل الإسلام يتخذ منها موقف الرفض والإدانة، مالم يضطر المسلمون إليها لرد الظلم والعدوان.

إن الحضارة الإسلامية باعتمادها على هذه الأسس كانت تحقق لنفسها توازنًا تجلى في المفهوم والمقومات والعطاءات والعلاقات. وما كادت تفقد هذا التوازن حتى بدأ الانهيار.

والانهيار في مدلوله المباشر الذي يمكن أن يصيب الفرد أو المجتمع أو كل ظاهرة في الحياة، يعني عدم السيطرة، والعجز عن التحكم. ويعني كذلك ضعف الحرية، والارتباط بآلية التقاليد. ويعني بعد هذا فقدان القدرة على الإبداع.

وأسبابه هي عكس الأسس التي جعلناها منطلقًا للحضارة الإسلامية، لاتحتاج إلا إلى بعض التأمل لاستنباطها. ويكفي أن يشار إليها باختصار شديد، من خلال العناصر الخمسة الآتية:

أولاً:

التخلف الذي تثيره اليوم إشكالية المعرفة والمنهج، على الرغم من كثرة المؤسسات العلمية في البلاد الإسلامية، وتعدد الأجهزة، وتزايد عدد المتعلمين والعلماء.

ثانيًا:

الانحراف عن القيم وما آل إليه الفكر والسلوك، بعد أن حادا عن الاستقامة وطغت على توجيههما الأهواء والنزوات والأغراض.

ثالثًا:

المحدودية التي عطلت في الرؤيا والواقع كل

طاقات التوسع والتكامل.

رابعًا:

الانغلاق الذي كان نتيجة للابتعاد عن سماحة الدين والتسامح الذي يدعو إليه، ولبعث النعرات العرقية والقَبَلِيَّة، وإحياء الخلافات المذهبية، ولضيق الذات وهي تشعر بالإخفاق والإحباط.

خامسًا:

الاضطراب الذي يعانيه المسلمون في معظم البلدان، متبلورًا في تبعية تمس مختلف شؤونهم، وتمهد لفرض السيطرة عليهم والهيمنة ومع هذا كله، أي مع ما ذكرنا عن ازدهار الحضارة الإسلامية وأسبابه في عهودها الزاهية، وكذا ما أشرنا إليه من تأخر هذه الحضارة عن مكان الصدارة، تاركة إياه لغيرها، فإن على المسلمين ألا يستسلموا، وعليهم أن يعوا حقيقة المرحلة الراهنة والواقع الحضاري الذي يعيشون فيه.

إن حضارة جديدة قد ولدت اليوم، غنية في مجال التطور العلمي والتفوق التقني وانعكاسهما على مظاهر حياة مختلف الشعوب، ساعية إلى إحراز كيان عالمي وطابع كوني، إلا أن طغيان الصبغة المادية والأنانية والانحلالية عليها يبعدها عن مجال القيم الإنسانية الرفيعة، ويكاد يجردها من كل مافيها من جوانب الإيجاب؛ بل لعله يهددها بأن يسرع إليها الاحتضار والزوال.

وإذا لم يكن خيار للمسلمين أمام هذه الحضارة سوى الأخذ بها وممارستها، ومحاولة مواكبة نموها المتجدد، فإنه ما يزال راسخًا في أعماقهم روح حضارتهم، وماتزال كذلك قائمة آثارها شاهدة خالدة. فهي متجلية في التراث الإسلامي الغزير بتنوع أشكاله وتعدد أنماطه، وفي نفوس المسلمين وما يزاولون من عادات وأعراف وتقاليد، ثم في تلك الحضارة الجديدة التي ما كان لها أن تقوم على دعائم قوية متينة لولا اعتمادها، إبان نهضتها وعصر أنوارها، على ما ترجمت من علوم المسلمين وآدابهم، وما نقلت من فنونهم وصناعاتهم.

ويبقى مع ذلك أن مشكل المسلمين اليوم – وهم يقتبسون هذه الحضارة الجديدة – كامن في أنهم لايبدعون ما يمكن أن تكون لهم به مساهمة فيه، ثم إنهم يعانون صراعًا بين ذاتهم والآخرين، ويواجهون تحديات تغزوهم وتتسرب إليهم، وتأخير تطورهم، وعرقلة قيامهم بالرسالة التي حملهم الله أمانتها المبنية على الإيمان به وعمارة الأرض ونشر أسباب الخير والسعادة.

وإن وعي المسلمين حقيقة الأمر الواقع وما يقتضي لتغييره، لدليل على أن عصرًا إسلاميًا جديدًا يعتمل مخاضًا لانبثاق فجره وإن في أفق بعيد، ولكنه متوقع ولابد آت، ليربط مستقبل المسلمين بماضيهم، ويوثق عرى حلقات حضارتهم، طالما أنها مازالت بروحها حيّة ثابتة، ولينقذ البشرية مما يحدق بها من أخطار.

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٧٩)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

شعبة المطبخ:

كان الطلاب الوافدون قبل إقامة شعبة المطبخ يتكفل أهل المدينة طعام بعضهم، فمن أهل الخير من يتكفل طعام واحد، ومنهم من يتكفل طعام اثنين منهم، ومن الطلاب من يصرف لهم منحة نقدية، يجهزون بها طعامهم، وهذا الوجه الأخير كان شاقًّا جدًّا على الطلاب، وشاغلا لهم عن الانصراف إلى الدراسة، ومخلًّا به، وتفاديًا من هذه الصعوبة أقاموا شعبة المطبخ عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، فكان المطبخ يجهز وجبات مابين ٢٥-٣٠ طالبا فقط في العام الأول من إقامته، وارتفع سقف هذا العدد مع مرور الأيام حتى وصل إلى ألف. وكانت فاتحة المطبخ من طباخ واحد، وأصبح طاقم المطبخ اليوم يضم (٢٨) عاملا فيه.

ولتوزيع الوجبات الغذائية الجاهزة على الطلاب سلكوا أولا طريقة إعداد تذكرة من ألمونيوم مدورة خاصة لكل طالب، لوجبة الغداء تذكرة خاصة بها، ولوجبة العشاء تذكرة خاصة بها. وقد نقشوا عليها كلمة «صباح» - للغداء-، وكلمة «مساء» لوجبة العشاء. كما ميزوا بين تذكرتي الوجبتين بالألوان، ونقشوا عليهما أرقاما، ولكل رقم تذكرتان: واحدة للغداء وأخرى للعشاء. ويسجل أسماء الطلبة الذين يتم صرف الوجبات لهم، ويوضع له رقم مسلسل وهو الرقم الخاص بالطالب الذي صرفت له التذكرة. فكان من الميسور على الطلبة استلام وجبات الطعام.

ويصرف مطبخ دارالعلوم لكل طالب رغيفين تم إعدادهما في التنور، ووزنهما (٢٥٠) غراما من الدقيق الجاف. ويعدون اللحم مع الخبز في وجبة العشاء، والعدس مع الخبز في وجبة الغداء. كما يعدون مرةً واحدةً في الأسبوع «البرياني» (الرز مع اللحم). ويصرف المطبخ الطعام مقابلَ مبلغ من المال أيضا. ويجهز المطبخ - علاوة على الوجبات المذكورة - نوعين من الطعام ببعض الفروق. كما يعد طعام الحمية للطلاب المرضى، ويقع مبنى المطبخ في الناحية الجنوبية من دارالعلوم. ويحتوي

(*) أستاذ التفسير واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

على عدة أجنحة.

شعبة البناء والتعمير:

دأبت دارالعلوم فيما يخص إقامة المباني أن أهل الخير يصرفون عناياتهم حينا بعد حين إلى حاجات دارالعلوم إلى المباني. فتقيم دارالعلوم المباني حسب الموارد المالية، لا أن البناء يقام أولا ثم يبدأ فيه الدراسة. فإن الناس تعودوا إقامة المبنى حسب الخطة المقترحة فإذا تم الفراغ من البناء شرعوا فيه الدراسة. وعلى العكس من ذلك كلما مست الحاجة وجدت الجامعة من عباد الله تعالى من يستعد لتلبية حاجتها، فأقيمت المباني بصورة تدريجية، وتستمر أعمال البناء كل عام في عموم الأحوال. ويبلغ مجموع المبالغ التي صرفت على المباني في دارالعلوم حتى عام ١٣٨٢هـ مليون وثماني مئة و واحدة وتسعون روبية.

شعبة السكن الطلابي:

يضم السكن الطلابي ثماني قاعات واسعة، و(٢١٠) حجرات، يشغلها نحو ألف طالب، ومن وظائف شعبة السكن الطلابي تحديد المهاجع للطلاب، والإشراف على أخلاقهم، و فصل نزاعاتهم، يقوم بها أساتذة دارالعلوم، ومن أخص ما يتصف به الطلاب بصفة عامة احترام قانون دارالعلوم، والتأسي بالسلف الصالح، والحب والإخلاص، والنصح. وذات مرة قال السيد آفتاب أحمد- نائب رئيس جامعة علي كره للمسلمين- حين نظر إلى حسن نظام الطلبة و رصانته: «أعظم ما تفاعلت معه في دارالعلوم هو أدب الطلبة وانضباطهم، وليت هذا الانضباط يحظى به جامعة علي كره». ولكن من الطبيعي حدوث ما لايوافق طبيعة كل واحد منهم في جمع حاشد يضم أفرادًا ذوي طباع مختلفة، مما لايستثنى منه مجتمع في العالم، ثم إن المؤسسات التعليمية تجمع بين الشباب الذين حياتهم في مرحلة من «الشباب شعبة من الجنون»، فيحدث أحيانا الشكوى والكراهية لأمور تافهة، فيصدر منهم حركات جنونية لزامًا. وفي مثل هذه الأوضاع من واجب شعبة السكن الطلابي أن تتخذ إجراءات سريعة، وتصدر القرار الشرعي في ضوء بيانات الفريقين وشهاداتهم.

شعبة الحفلة المئوية:

تستهدف هذه الشعبة التواصل مع خريجي دارالعلوم، وتقوم بجمع إحصائيات الخدمات الدينية والعلمية والاجتماعية و السياسية وغيرها في مختلف الدوائر وعلى مختلف المستويات. وأعدت هذه الشعبة خريطة لدار العلوم، تتجلى خدمات دارالعلوم بنظرة واحدة فيها. وتقوم هذه الشعبة بالتحضير على مستوى رفيع لعقد الحفلة المئوية لدارالعلوم/ديوبند، ويرأس هذه الشعبة الشيخ حامد أنصاري غازي.

شعبة التنظيف:

تتوقف الصحة العامة لحد كبير على النظافة، فعنيت دارالعلوم بالنظافة عناية كبيرة، ويقوم نحو عشرة أشخاص بكنس مرافق الجامعة، واثنين برش

المياه فيها بصورة مستقلة.

شعبة الكهرباء والمياه:

وفَّرت دارالعلوم نور الكهرباء، ونصبت المراوح الكهربائية في الفصول الدراسية والمكاتب الإدارية والمساجد، كما نصبت المصابيح الكهربائية في الممرات والمرافق، واختصت بعض الفصول الدراسية لمذاكرة الطلاب ومراجعة دروسهم، ووفرت فيها الكهرباء في المواعيد المحددة.

ولتوفير المياه بئران في محيط دارالعلوم، كما نصبت مضخات للمياه في السكن الطلابي في أماكن عدة. ونصبت المضخة الكهربائية لتوفير المياه في حوض المسجد.

شعبة الشؤون الخارجية:

تقوم هذه الشعبة بالنظر في الاحتياطات اللازمة فيما يخص جواز الطلاب الوافدين من الدول الأخرى وتأشيراتهم ونحوها، كما توفر هذه الشعبة استمارات الترخيص للسفر بالقطارات.

ارتفاع عدد الشعب بصورة تدريجية:

بدأت دارالعلوم أولًا بشعبة التعليم، والمكتب الإداري. فكان المكتب الإداري يقوم على توفير الموارد المالية والشؤون الإدارية. ثم ارتفع عدد الشعب مع مرور الأيام وحسب الحاجة الماسة إليه، فأقيمت شعبة الحسابات لضبط الموارد والمصارف، وشعبة المكتبة بعد أن توفر عدد معتد به من الكتب. ونظرا إلى وفرة الاستفتاءات الواردة إليها دشنوا شعبة الإفتاء. كما أقيمت شعبة خاصة بالإشراف على الحراس والبوابين. وأنشئت شعبة الطب لمعالجة الطلبة ولتيسير التسهيلات الاقتصادية لهم في المستقبل. ودشنوا شعبة التبليغ والدعوة لإيصال المعلومات الدينية والأحكام الشرعية إلى عامة المسلمين، وأصدروا المجلات لنشر فكرة دارالعلوم. وأقاموا شعبة المطبخ لتغطية حاجات الطلاب الغذائية. كما أنشؤوا شعبة التعمير والبناء لإقامة المباني الجديدة، وصيانة المباني القديمة. كما دشنوا شعبة الأوقاف مع مرور الأيام للحفاظ على وقفيات دار العلوم. وأنشؤوا شعبة تحسين الخط بهدف تحسين خط الطلاب، وتوفير مصدر للعيش كريم لهم، و لتنظيف المرافق شعبة التنظيف، ولحفظ الوثائق والمستندات وترتيبها دشنوا قسم الوثائق والسجلات، ولجمع التبرعات من أكناف البلد أقاموا شعبة التنمية والتطوير، وللقيام على الطلاب المقيمين في السكن الطلابي أنشؤوا شعبة السكن الطلابي، وشعبة الكهرباء وتوفير المياه، ولترغيب الطلاب في الصناعة والحرفة أقاموا شعبة الصنائع والحرف، وللقيام على الطلاب الوافدين من الدول الأخرى أنشؤوا شعبة الشؤون الخارجية، وللتواصل مع خريجيها شعبة منظمة الأبناء القدامى، وللإشراف على حياتهم العلمية أنشؤوا مجلس معارف القرآن، الذي أصدر عددًا من الكتب حول الموضوعات الإسلامية والتاريخية لحد الآن. وهذه الشعب نشأت حينا بعد حين.

* * *

المؤذن الأول للرسول ﷺ ونبذ العنصرية والطبقية

بقلم: **الأستاذ محمد الدواس** (*)

الإسلام دين العدل والمساواة، دين الحرية والسلام، سواء فيه الذكر والأنثى، وقد جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله ليكون دليلا للخلق ومسطرة للحق، فكيف حارب به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العادات الجاهلية الدنيئة؟ وما علاقة المؤذن الأول لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- باجتثاث جذور الطبقية والعنصرية من المجتمع؟.

لا شك أن العَالَمَ كان يعيش فوضى عارمة قبل بعثة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاصة في شبه الجزيرة العربية، حيث ساد الجهل واتخذ القوم رؤوسا جُهَّالًا فسادوا القبائل عنوةً، وكان المقام العالي لأصحاب النفوذ والقوة، فاجتمع فيهم الخُبْث واستغلوا نفوذهم ليعيثوا في الأرض فسادا، وأكل قويهم ضعيفهم، ولم يَخْلُ بالمقابل مجتمع العرب من أخلاق طيبة حسنة عُرِفوا بها، فكان فيهم الجود والكرم والنخوة العربية والنفس الأبية والغيرة على المحارم، وكان الوفاء بالعهد ميثاقًا مقدسًا عندهم، ناهيك عن حفظ الأمانة ومقت الخيانة... وهو ما أعطى العرب المكانة الخاصة بين المجتمعات؛ لكن المجتمع الجاهلي لم يَسْلَمْ من فِكْرة السيادة والسطوة وتَمَلُّكِ العبيد واستخدامهم واحتقارهم، مما جعلها فكرة أساسية لتكريس مفهوم الطبقية والعنصرية في المجتمع، وكانت أيضًا فكرة لتطبيع المجتمع ككل وتخديره بمخدر الطبقية والعنصرية، فكانت بذلك بداية النهاية لحرية «العبيد» وحقهم في العيش كأي إنسان تكفل له إنسانيته العيش حُرًّا طليقا، ذلك أنه لما سادت سياسة ملك العبيد وسلبهم الحرية واتخاذهم خَدَمًا تحت سلطة الإكراه والتعذيب؛ وفشا في الناس كثير من الأخلاق المقيتة من ظلم وجور ووأد للبنات واحتقار للمرأة واعتبارها هامشًا في الحياة، وغطَّى الظلام النور؛ شاء الله تعالى أن يتوهج النور في العالم من جديد، وشاء الله تعالى أن تعود للإنسانية مكانتها، فبعث الله محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والوهم إلى نور العلم والفهم، بعثه ومعه دين الإسلام ليحيى به العالم بعد أن قتلته قوى الشر والجهل، فجاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة مهداة للعالمين، مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وكانت بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشارة خير للعالمين جميعا، حيث أرسله الله تعالى داعيا للخلق بالحق إلى عبادة الواحد الأحد وحده لا شريك له، وكان من

(*) باحث في الدراسات القرآنية والحديثية، المغرب

العسير الاستجابة لدعوته، خاصة وأن المجتمع الجاهلي كان يعرف تنوعا وتعددا في الآلهة، لكن الله إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، فاختار لصحبة النبي ﷺ أصدق الناس لينصروه، وشاء الله تعالى أن تنتشر الدعوة الإسلامية في عقر دار الكفر والوثنية، وذاع صيت الإسلام بعد كثير من اضطهاد معتنقيه، فجاء نصر الله والفتح من عنده، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وذلك بعد أن علموا بما في الإسلام من قيم وأخلاق ومبادئ يرتكز عليها، خاصة وأن هذه المبادئ والقيم تعالج أمورًا مشكلة يعاني منها المجتمع وأفراده، وأي شيء جاء معالجا لقضايا الناس ومهتما بمسائلهم؛ يتلقفه الناس وتميل إليه نفوسهم، بل بالأحرى جاء به رجل لم يُعْرف عنه كذب ولا زور ولا بهتان، وكان يلقب بالصادق الأمين قبل بعثته، مما أسهم بشكل كبير في تصديقه واتباعه.

ومن القيم التي جاء بها رسول الله ﷺ في دعوته؛ ضمان كرامة الإنسان، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]، فجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه القيمة أصلا للحرية والكرامة، وَدَعَا إلى الإسلام دون أن يُكره أحدًا على اعتناقه، إذ الإكراه على الشيء مُناف للحرية في اختياره، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]، وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كرامة الإنسان أصلا للمساواة ونبذ الطبقية والعنصرية داخل المجتمع، ليكون الناس سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]، وهو بهذا قد وضع يده على الجرح الدامي الذي يؤلم طبقة كبيرة من المجتمع آنذاك، إذ «العبيد» كانوا مضطهدين لا يصلحون إلا للخدمة وحمل الأثقال والشقاء، في مشهد تجرد من الإنسانية وجاوزها إلى المعاملة البهيمية، التي نخرت قوى هذه الطبقة من المجتمع، وأرغمتها على الطاعة والانحناء دون أي مقابل أو بسيط شفقة، فكانت دعوة رسول الله ﷺ إلى محاربة العبودية لغير الله وإفراد الله الواحد الأحد بالعبادة حلًّا لمعاناتهم، هروبًا من الشقاء وَسَقْيًا لأرواحهم بالوحي الرباني، ناهيك عن فرحهم وهم في نشوة الإحساس بالكرامة والتحرر من قبضة العبودية الاستغلالية والفرح بالقيمة التي أولاهم الإسلام إياها، ذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمّا دعا إلى تحرير العبيد كان قراره هذا بداية فعلية لمحاربة الطبقية والعنصرية، حيث ساوى بين الناس جميعا، كلٌّ عَبْدٌ لله حر في نفسه ضامن لكرامته. «وبلال بن رباح رضي الله عنه من «العبيد» الذين أسلموا قبل تحريرهم، إذ كان عبدًا لأمية بن خلف، وسمع دعوة الإسلام فأسلم، فلما علم به أمية عذَّبه عذابًا شديدًا، وبلال بن رباح مولى أبى بكر -رضى الله تبارك وتعالى عنه- كان أسود مولدًا من مواليد بني جمح كان أبوه رباح حبشيًّا سبيًا وكان ابنه بلال من مولدي السراة، وكانت أمه حمامة سبية، تلقب بسكينة، وأسلم قديما في أول ما دعا رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقال: إنه كان الثالث في الإسلام، وكان لأمية بن خلف، وكان أمية بن خلف يخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيلقيه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ويقول: والله لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد، فيقول: أحد أحد، ويضع أمية بن خلف في عنقه حبلا، ويأمر الصبيان فيجرونه، فمر به أبو بكر رضى اللَّه تبارك وتعالى عنه، وهو يعذبه، فقال له: يا أمية! أما تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال: أنت أفسدته، فأنقذه. وكان بلال تربًا لأبي بكر رضي الله تبارك وتعالى عنه، وأحد من دعاه أبو بكر إلى الإسلام، فقال أبو بكر: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك، فأعطيك إياه ثمنا لبلال، قال: قد قبلت، فأعطاه ذلك الغلام، وأخذ بلالا فأعتقه»(٤).

فصار حرًّا طليقًا مسلما يغمر قلبه الإيمان ومحبا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن أكرمه وقربه منه، وذلك لما لاقى في الإسلام من تعذيب، ولما كان منه من صبر وتجلد وتمسك بدين الإسلام رغم محاربته وتعذيبه، حيث عيَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذنا أولًا له، يؤذن للصلاة، الأذان الذي يعتبر شعارا أساسيا في الإسلام، وركيزة أساسية ينادى بها للصلاة!! أعظم ركن في الإسلام، مقام رفيع وتشريف كبير لا يليق به إلا شريف رفيع القدر والمكانة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير لهذا المقام أنسب من بلال بن رباح رضي الله عنه؛ لأنه كان من أوائل الناس تصديقا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحمل في سبيل الإسلام أذى كبيرا، فكان العطاء قدر البلاء، ولم ينظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لحظة تعيينه مؤذنا- إلى لونه ولا إلى عرقه ولا إلى شرفه ولا مكانته؛ بل نظر إلى شرفه بالإسلام ومكانته فيه، وهو بهذا يعطينا درسا إنسانيا فريدا، أصل من خلاله لنبذ العنصرية والطبقية، معتمدا في ذلك على النهج القرآني في تكريس كرامة الإنسان، يوحي بذلك إلى أن الإسلام يعامل الإنسان لأنه إنسان، دون النظر إلى لونه أو عرقه أو لغته، ضامنا له الكرامة والحرية وكافة الحقوق، وتكليف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلال بمهمة الأذان أحدث في المجتمع الجاهلي قلقا وعجبا، إذ الأذان مقام التشريف والسيادة، وبلال عبد حبشي مملوك، فكيف لعبد أن يَشْرُفَ ويسود؟

هذا ما جاء الإسلام ليحققه ويرسخه في المجتمعات كلها، جاء لحماية حقوق الإنسان وكرامته، جاء ليحقق المساواة ويشرف الناس بالتقوى ويحارب العنصرية والطبقية داخل المجتمع ككل، فكانت بداية ذلك يومَ أذَّن بلال.

* * *

الهوامش:

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٤) الكتاب: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، باب: وأما المستضعفون الذين عذبوا في الله، ج ٩، ص ١١٠، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى:٨٤٥هـ).

تأثير القرآن الكريم في إصلاح المجتمع المعاصر

بقلم: **الأستاذ رفيع الدين حنيف القاسمي** (*)

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وفضله على المخلوقات جميعًا، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وأرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، ولم يتركه في هذا الوجود بلا منهج يسير عليه؛ بل وضع له المنهج وأمره أن يسير عليه، مبينا له أن الحياة الحقيقية هي باتباع ذلك المنهج، وأن الإعراض عنه سبب للشقاء والبلاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ اَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَاِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى اَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ (طه:١٢٣-١٢٦).

ومن هذا المنطلق أوجب الله على الناس أن يصلحوا الخلل والفساد الذي يطرأ على الحياة، فقد أصلح الله الدنيا بإصلاح الأرض التي يعيش عليها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦)، فإذا حصل فساد من قبل البعض، وجب على الناس أن يتصدوا له، ويعيدوا ما فسد إلى أصله وهو الصلاح.

دور القرآن في الإصلاح الاجتماعي

إن الإصلاح الاجتماعي يعتمد على توفير السلام، والأمن، والطمأنينة، والعدل والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، ووجود الرحمة والبر والتلاحم والأخوة والتسامح الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد.

عناية القرآن: الإصلاح سبب لدفع البلاء والهلاك والضنك عن المجتمعات لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَاَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧). يقول سيد قطب: «وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يَظلِم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تَحقُّ عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال،والاختلال!.

فارتفاع منسوب الخبث والفجور يدمر المجتمع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

(*) رفيق التصنيف دار الدعوة والإرشاد، حيدر آباد.

وَاَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣) فوجود النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المجتمع، وهو صاحب المقام الأول في القيام بالإصلاح يحمي المجتمع ، وكذلك الاستغفار والاعتراف بالذنب والرجوع عنه أيضًا سبب النجاة.

والإنسان قد يصدر منه الذنب؛ بل الذنوب الكثيرة، لكن المهم أن لا يصرَّ على ذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً اَوْ ظَلَمُواْ اَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ اِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٥).

٢- **عناية القرآن بالإصلاح الاجتماعي على مستوى الأفراد:** وهذا يؤكد لنا أن دعوة الإصلاح الاجتماعي يجب أن تتأصل في نفوس أفراد المجتمع، حتى يحافظوا على وجودهم وأوطانهم، ويحموا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من الهلاك.

ومن هنا يجدر بكل صالح في عقيدته، أن تصدر عنه الأعمال الصالحة، القلبية والبدنية، فإصلاح الأعمال القلبية وهي الانفعالات النفسية وما يترتب عليها من آثار حميدة أو ذميمة، يكون بإصلاح الضمائر والأخلاق، والنهي عن الكبر والحسد وغيرها. وإصلاح الأعمال البدنية وهي التي تقترفها الجوارح، يكون بالوقوف عند حدود الشريعة فيها.

هذا، وقد أمرنا الله تعالى بإصلاح جميع الأعمال في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ اِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، وأرشدنا سبحانه وتعالى إلى أهمية العمل وقيمته في قوله الكريم: ﴿وَمَنْ اَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا اِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ اِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

ولا يخفى ما للعبادة من أثر في إصلاح الفرد، كيف لا وهو واضح في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَاَقِمِ الصَّلٰوةَ اِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ اَكْبَرُ وَ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

كما ينبغي أن نبين أثر العمل في إصلاح الأخلاق عند الأفراد، فقد أثنى الله تعالى على خلق النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بقوله: ﴿وَاِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، وقدم الأخلاق على العبادات في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الاَرْضِ هَوْنًا وَاِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلـٰمًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣-٦٤)، فمعاملة الناس والتواضع لهم أولًا، ثم قيام الليل والعبادة ثانيًا؛ لأن المجتمع ينتفع من الخلق الحسن، بينما العبادة لصاحبها فقط، لذا جاءت النصوص التي تحث على ذلك، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَاْمُرْ بِالْعُرْفِ وَاَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٤١).

٣- عناية القرآن بالإصلاح الاجتماعي على مستوى المجتمع: إن صلاح المجتمع يكون بطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع والتفرق؛ لأن ذلك يؤدي إلى الفشل الذريع، والضعف الذي لا تقوم للأمة به قائمة، قال تعالى: ﴿وَاَطِيعُوْا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوْا اِنَّ اللهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦)، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنتُمْ اَعْدَاء فَاَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ اِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَاَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣).

وحدة الأمة: قال تعالى مخاطبًا أمة الإسلام: ﴿اِنَّ هَذِهِ اُمَّتُكُمْ اُمَّةً وَاحِدَةً وَاَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده قول الله تعالى: ﴿يَاَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَاُنثَى وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَٰئِلَ لِتَعَارَفُوا اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ اَتْقَاكُمْ اِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

٤- عناية القرآن بالإصلاح الاجتماعي بين الفئات المختلفة: يُعنى القرآن الكريم بالإصلاح الاجتماعي بين الفئات المختلفة من اليتامى، والأسرة، والمتخاصمين في المجتمع:

ا- اليتامى: اليتامى صنف من الضعفاء الذين يحتاجون إلى رعاية شؤونهم؛ لأنهم فقدوا أرحم الناس بهم، فقدوا المعيل والراعي والمدبر لشؤونهم، فقدوا من كان يحرص عليهم، فلا بد من وجود من يعوضهم عن ذلك حتى يصلوا إلى الرشد والكمال؛ لأن اليتيم عندما يفقد من يرعاه يكون عرضة للإهمال من جهة، ولمطامع الظلمة من جهة أخرى، من أجل ذلك حث الإسلام المجتمع الإسلامي المحيط بهم، على العناية بهم وتعويضهم عما فقدوه، بأن يبالغ في إكرامهم، وفي القيام بكفالتهم وإدارة شؤونهم وعدم قهرهم قال تعالى: ﴿فَاَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (الضحى:٩)، وقال تعالى: ﴿اَرَءَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون:١-٢).

ب: إصلاح الأسرة: اهتم الإسلام بإصلاح الأسرة والعلاقات بين الزوجين، وبين الأرحام؛ لأن الأسرة هي المكون الرئيس للمجتمع، ولتحقيق ذلك أوصى الإسلام بالنساء خيرًا وأمر بإكرامهن والإحسان إليهن، ورتب للزوجين حقوقًا وواجبات على بعضهما البعض، وحقوقًا للأرحام بين أفراد الأسرة وجاءت النصوص الشرعية العديدة التي نصت على إصلاح أحوال الأسر، بدءًا من العلاقات الزوجية ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَاِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ اَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ اَهْلِهَا اِن يُرِيدَا اِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا اِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥)، فهذا نص صريح في وجوب تدخل أطراف الصلح من جهة الزوجين؛ لكي يتداركوا الخلل ويصلحوا بين الزوجين حتى لا

تتدمر الأسرة ويتضرر الأبناء.

ج : الإصــلاح بــين المتخاصــمين: من حقوق المسلمين على بعضهم لبعض، اجتناب كل ما يؤذيهم أو يغري بينهم العداوة والبغضاء، أو يمزق وحدتهم ويفرق جماعتهم، وفي مثل هذا المعنى ورد قول الله تعالى: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الاَنْفَالِ قُلِ الاَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُــولِ فَــاتَّقُوا اللهَ وَاَصْــلِحُوا ذَاتَ بَيْــنِكُمْ وَاَطِيعُــوا اللهَ وَرَسُــولَهُ اِنْ كُنْــتُمْ مُــؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١) وإصلاح ذات البين يكون بالتسامح والعفو وإزالة أسباب الخصام، وزرع المودة والرحمة والتحابب والتآلف بين المسلمين.

٥- عنايــة القــرآن بعــلاج الفــساد الاجتمــاعي:

لايخفى على متبصر في المجتمع أنه يعاني مظاهر انحراف عديدة، تدل على فساد اجتماعي خطير، منها: كثرة الطلاق بين المتزوجين، وكثرة العنوسة والعزوف عن الزواج بين الذكور والإناث، وكثرة جرائم السرقة، وشيوع ظاهرة القتل للنفس وللآخرين، وانتشار المخدرات والخمور.

وعلاج هذه الظواهر يكون بإرشاد المجتمع إلى مناهج الخير والسعادة، وكف أهلها عن ارتكاب الفواحش واللمم.

ولذلك حرّم الخمر؛ لأنه يخامر العقل، ويفشو بذلك الفساد والخراب في الأرض، فقد علل القرآن الكريم تحريم الخمر بقوله: ﴿يٰاَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالاَنصَابُ وَالاَزْلٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * اِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ اَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰوَةَ وَالْبَغْضَاء فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ اَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة:٩٠- ٩١).

والفساد في أي مكان، ليس إلا جراء اكتساب الناس الذنوب والمعاصي، ولو أنهم استقاموا لكانوا وحياتهم في صلاح ونجاح قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ اَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١)، فالله تعالى خلق العالم على نظام يلائم صلاح الناس، فعندما اقترفوا الذنوب اختل النظام، وقد بين القرآن أن فساد البر والبحر، إنما هو بما اكتسبته أيدي الناس من الذنوب والمعاصي.

إن معالجة المشاجرات بين الناس والطلاب تكون بوسائل من أهمها: مقابلة السيئة بالحسنة لما لها من آثار عظيمة في تحقيق الإصلاح بين الناس قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، ولأن هذا الخلق يحتاج إلى قوة إرادة، وعزم، وتمرس على الصبر قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقّٰهَا اِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقّٰهَا اِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت:٣٥)، كما تعالج هذه الظواهر بالابتعاد عن حمية الجاهلية، والتخلق بالسكينة والمراد بها الثبات والأناة والتمهل قال تعالى: ﴿اِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَاَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَاَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا اَحَقَّ بِهَا وَاَهْلَهَا وَكَانَ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح:٢٦).

كما لا يخفى على المتبصر، دور الإصلاح السياسي وأثره في السير بالأمة نحو الإصلاح الاجتماعي، فسياسة الأمة وتحقيق العدل تنطلق من قوله تعالى في وصية موسى لأخيه هارون: ﴿وَقَالَ مُوسَى لاَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَاَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:١٤٢)، إن الإصلاح الاجتماعي لا يتحقق إلا بإقامة العدل في الحكم بين الناس قال تعالى: ﴿يَاَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى اَنفُسِكُمْ اَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالاَقْرَبِينَ اِن يَكُنْ غَنِيًّا اَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ اَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى اَن تَعْدِلُواْ وَاِن تَلْوُواْ اَوْ تُعْرِضُواْ فَاِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

كما جاء في تحريم قتل الإنسان نفسه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ اَنفُسَكُمْ اِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:٢٩)، وكذلك تحريم قتل الأبناء: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ اَوْلادَكُم مِّنْ اِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَاِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١).

وقال الله عز وجل عن تحريم القتل والفساد بين الناس بغير حق:

﴿مِنْ اَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى اِسْرَائِيلَ اَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَاَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ اَحْيَاهَا فَكَاَنَّمَا اَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ اِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِى الْاَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(المائدة:٣٢).

خلاصة القول: إن أدب القرآن الكريم، هذا المنزل من الله عزّ وجلّ ، الذي تبتني عليه أحكام الإسلام، وهو يدعو الإنسان لصلاح المجتمع البشري، والكف عن الفساد في الأرض، بالاحترام فيما بين الناس، والعدل والمساواة، بين فئات مختلفة من المجتمع من غير تفريق بين اليتيم والأنثى، وغيرهم، بل يوفر الأمن والأمان لكل من يعيش في المجتمع، ولذا يقول القرآن: من من قتل نفسا بغير نفس، فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، وفي هذا العصر لابد من توفير الأمن والأمان في المجتمع بالعمل بالتعليمات الإسلامية والأدب القرآني، لكي نكون كجسد واحد في المجتمع الإنساني، لا نحيد ولا نميل إلى ظلم الآخرين، ولا نحسد ولا نبغض؛ بل يوجه كل أحد عنايته إلى إصلاح النفس، والمجتمع، والاعتناء بالأفراد والجناح الضعيف في المجتمع من اليتامى والمساكين، والنساء، ولا يرتكب الجرائم من شرب الخمر الذي هو جماع الإثم، ولا يعتدي أحد على أحد على أهله وماله، ولا يقصد قتل أحد من غير حق، فبهذا يكون المجتمع البشري صالحا للعيش في هذه الحياة.

* * *

المصادر والمراجع

١- مسعد عرفة، أثر القرآن في تغيير الإنسان، مركز تفسير الدراسات القرآنية.
٢- الدكتور عبد القدوس بن أسامة السامرائي، أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم، إدارة البحوث.
٣- السميري، القرآن ، وأثره على الإنسان.
٤- د. أوريل بحر الدين، دراسة تاريخية عن أثر القرآن الكريم في اللغة العربية.
٥- د. خير الدين خوجة (الكوسوفي) فضل القرآن الكريم وأثره في حفظ العربية وإثرائها.

عقود الامتياز في الفقه الإسلامي المعاصر

بقلم: **الأستاذ عبد الوهاب سلطان الدّيروي** (*)

التطورات التي شهدها عصرنا في شتى مجالات الحياة قد أحدثت قضايا عديدة على بساط البحث الفقهي المعاصر، و زادتها التحولات المتسارعة في الأنظمة و المؤسسات و المجتمعات تعقيدا و خطورة، و بحكم أن الشريعة الإسلامية خالدة و صالحة لكل زمان و مكان، فإنها لابد أن تملك في طيات منظومتها التشريعية المبادئ و الأسس التي يمكن تخريج هذه الحوادث و المستجدات عليها، سواء جاءت هذه المبادئ و القواعد صراحة أم ضمنا.

عقود الامتياز مبنى معاصر، و معنى قديم

و من جملة ما استحدثه عصرنا من العقود و المعاملات في مجالات الاقتصاد و الإدارة و سياسة الدولة ما يسمى بـ«عقود الامتياز».

وهو اسم جديد لمسميات فقهية قديمة، حيث تلتقي فيها عدة عقود فقهية كالبيع و الإجارة و الجعالة و الاستصناع و المشاركة غيرذلك.

عقود الامتياز مصالحها و مقاصدها

و هي – عقود الامتياز- مرتبطة مِن جهة بسياسة الدولة المالية إدارةً و إنشاءً و استغلالا، و من جهة أخرى بالمؤسسات المالية الصناعية، و المستثمرين، و المهتمين بالأعمال، و بكل ذلك تتحق المصالح مِن نوعين: المصالح العامة المنوطة بولي الأمر، و المصالح المستهدفة للمتعاقدين، و مِن ثم جاء في «المعايير الشرعية»:

«... وهي من الوسائل التي بها تتحقق المصالح العامة المنوطة بولي الأمر، أو المصالح المستهدفة للمتعاقدين»[1].

عقود الامتياز: التعريف بالمصطلح

على الرغم من أن عقود الامتياز يشتمل على عدة عقود أو ضوابط شرعية، كالإجارة و صورِها، و الجعالة و غير ذلك، إلا أنها بمجموعها اكتسبت صورة جديدة، و من ثم فإنها تمثل عقدًا عصريًّا جديدا من نوعه، اصطلح عليه الفقهاء و الحقوقيون المعاصرون، فعرفوه كالتالي:

«المقصود بالامتياز.... منح طرف لآخر حق الاستغلال أو الإنشاء أو الإدارة ممن يملك هذا الحق بمقابل متفق عليه»[2].

مجالات عقود الامتياز و جهات توظيفها

و تتحقق عقود الامتياز في شتى الجهات، و نستطيع تقسيمها بعد السبر و الاستقراء إلى ثلاث:

(*) قسم التخصص في الإفتاء بجامعة دارالعلوم كراتشي باكستان.

الجهـة الأولى: عقـود الامتيـاز بـين الدولـة و المؤسسات أو الأشخاص.

الجهـة الثانيـة: عقـود الامتيـاز بـين الـشركات بعضها مع البعض، أو مع الأشخاص.

الجهة الثالثة: عقود الامتياز بين الأشخاص.

عقود الامتياز بين الدولة و المؤسسات

يتـأتى هـذا النـوع مـن عقـود الامتيـاز باتفـاق ناشـئ بـين الدولـة و شـخص طبيعـي أو اعتبـاري (المؤسسة)، و يسمى عقد امتياز الاستغلال.

و يعطـى صـاحب الامتيـاز حقـا منفـردا في استغلال المعادن أو المياه و مافي حكمها، و إنتاجها لقاء مقابل.

دراسة فقهية و تكييف شرعي

وهذه الصور من العقود تحدث في كل بلد بين الدولــة و مؤســساتها و أشخاصــها، و تطــورت صورها اليوم من أجل التغيرات العلمية و الصناعية الحديثة، و قد يحدث أن «شركات الامتياز للبترول أو المعادن التي يعطى لها حق الامتياز لفترة محددة، والتزمت بأيلولة ما تملك إلى الحكومة - مثلًا-»[٣].

و لم نجد لدى فقهاء الحنفية ما ينص على هذا النـوع مـن المعاملـة صريحـا بالعبـارة، و لكـن تناولهـا الفقهـاء المعـاصرون، و درسـوا الموضـوع، وتوصـلوا إلى تكييفها الشرعي، فكان من ذلك عدة تكييفات فقهية كالتالي:

التكييف الشرعي الأول

والتكييف الشرعي لهذا النوع من العقود هو أنها من صـور الجعالـة، فالدولـة هـي الجاعـل، و المؤسـسة المستخرجة هي العامل، و المقابل المحدد هو الجعل، وهو الرأي الذي استقر عليه رأي العلماء و الفقهاء من أعضاء «الأيوفي»، و صدر به قرارهم[٤].

التكييف الشرعي الثاني

من الممكن قياسها على عقد المزارعة بالنصف و الربـع، وهـو المـذهب لـدى فقهـاء مـذهب الإمـام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، و به أفتى بعض فقهاء الحنفيـة المعـاصرون، و صـدرت بـه الفتـوى مـن دارالإفتـاء بجامعـة دارالعلـوم، كراتـشي بإمـضاء مـن العلامة الفقيه محمد تقي العثماني و سائر أعضاء هيئة الإفتـاء بهـا[٥]، نظـرا إلى شـيوع التعامـل بهـا في البـلاد المسلمة ولا سيما في بعض الأقاليم داخل باكستان، وهي غنية بالمعادن من شتى الأنواع.

التكييف الثالث

و يمكـن تخريجها كـذلك عـلى أسـاس الإجـارة، بحيث يكـون الشخص الاعتباري أو الحقيقي أجيرا لدى الجهة الحكومية بمقابل متفق عليه.

تنبيه

علما بأن التكييفات الشرعية أعلاها إنما تبتني على الاتجاه الفقهي الذي يجعل المعادن ملكا للدولة، و هـو الـرأي الـذي ذهـب إليـه الفقهـاء في مـذهب الإمام مالك -رحمه الله تعالى- كما أفرده كاتب هذه السطور ببحث مستقل برعاية من شيخنا العلامة الفقيه محمد تقي العثماني -حفظه الله تعالى- و ليس هذا موضع بسطه.

عقود الامتياز بين المؤسسات و الأشخاص

وهي صور مختلفة و متنوعة، و معظم ذلك يتبلور في أشكال البطاقات التي تصدرها الشركات بشروط و لوائح، و تعلن عليها حوافز تجارية للمستخدمين، و قد أصبحت هذه البطاقات شائعة في عصرنا الراهن.

و قد اختلفت اتجاهات الفقهاء المعاصرين في تكييف هذا النوع من البطاقات، و معظمها مالت إلى الحظر، ولكن يبدو أن المجال للكلام فيها و عليها لم يزل مفتوحًا.

التكييف الفقهي

وفي ضوء ما توصلنا إليه فإن استعمال البطاقات من هذا النوع يتعاطاها عادة جهات ثلاث:

* شركة البطاقة
* بائع البطاقة
* حامل البطاقة(المشتري)

فالعلاقة بين شركة البطاقة و بائعها هي علاقة الإجارة، فالبائع دلال للشَركة لِبيع هذه البطاقات، حيث يجلب الزبائن للشركة، بينما العلاقة بين بائع البطاقة و مشتريها هي علاقة بائع بمشترٍ، و بالتالي يحقّ له-كدلال- أن يأخذ الأجرة من الشركة، كما يجوز له كذلك أن يجعل لنفسه نصيبًا في النقاط (Points) التي يحصل عليها المشتري عند شراء بضاعة أو خدمة في شكل نسبة معينة، لتِكون بمثابة أجرته كوسيطٍ بين الزبون (المشتري) والشركة، ولكن هذه الأجرة إنما يجوز له أخذُها إذا لم يكن محظورا مِن قِبل الشركة، وعليه فإن كانت الشركة قد نصّت في الاتفاقية على أن لا يأخذ بائع البطاقة أجرة من المشتري، فلا يجوز له أخذها حينئذٍ.

٢- النقاط (Points) التي يُعطاها المشتري إنما يصح تخريجها على أساس الهدية أو الجائزة إذا لم تكن مشروطة في العقد، و لا مقصودة بالشراء، وإنما تأخذ حكمَ الهدية إذا كان قصد المشتري هو شراء البطاقة أصلا، ثم أُعطي النقاط الإضافية، تشجيعًا له على استخدام البطاقة، و ترويجًا له.

و في صورة جواز أخذ الأجرة من المشتري في شكل نسبة معينة من النقاط، إن حصل و اشترى المشتري خمرا أو خنزيرا، و حصل مقابلَ شرائِه على نقاط من بائع الخمر أو الخنزير كهدية أو جائزة، ثم وصلت إلى حساب بائع البطاقة نسبة معينة منها، فحكمه أن هذه النقاط يجوز استعمالها للبائع؛ لأنها ليست جزءا من الثمن؛ بل هدية مستقلة، تُعطى للمشتري تشجيعًا على استعمال البطاقة، فلا مانع إذن لبائع البطاقات من أخذ النقاط و استعمالها والحالةُ هذه ومستند ما قلنا هو ما قاله العلامة الشامي في فتاواه:

«أما الدلال فإن باع العين بنفسه بإذن ربها فأجرته على البائع وإن سعى بينهما وباع المالك بنفسه يعتبر العرف وتمامه في شرح الوهبانية»(٦).

ولما جاء في قرار من قرارات المعاييرالشرعية:

«يجوز منح حامل البطاقة مميزات لا تحرمها الشريعة مثل أن يكون لحاملها أولوية في الحصول

عــلى الخــدمات أو تخفــيض في الأســعار لــدى حجـوزات الفنـادق وشركـات الطـيران أو المطـاعم ونحو ذلك .....»[٧].

و فيه أيضا:

«يجـوز للمؤسـسات أن تتقـاضى مـن الجهـة القابلة للبطاقة عمولة متقطعة من أثمان السلع أو الخدمات؛ لأنها من قبيل أجر السمسرة والتسويق وأجر خدمة تحصيل الدين.

٦- «يجوز للمؤسسات أن تتقاضى من حامل البطاقة رسوم عضوية أو تجديد أو استبدال؛ لأن هـذه الرسـوم هـي نظـير السماح للعميـل بحملهـا والاستفادة من خدماتها»[٨].

ومما يؤيد ذلك ما جاء في مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجدة، نصه كالتالي:

«العلاقة بين البنك المصدر للبطاقة والمنظمة العالمية الراعية لها هي علاقة وساطة (سمسرة)، حيـث إن المنظمـة هـي صـاحبة الحـق المعنـوي في البطاقـة (الترخـيص أو الامتيـاز). وتنـشئ المنظمـة علاقة بينها وبين البنوك والمؤسسات المالية التي تـصدر البطاقـة، حيـث تـزود المنظمـة تلـك البنـوك بـالخبرة الفنيـة والإداريـة في إدارة نـشاط إصـدار البطاقـة، وتـشمل خـدمات المنظمـة التوسـط بـين الأعضاء بشأن الاتصالات والمراسلات وعمليات المقاصـة والتـسويات وعمليـات التفـويض وإيجـاد الحلول للمشاكل التي تحدث بين الأعضاء.

وتحصل المنظمة من الأعضاء عمولة في حدود التكلفة؛ لأن هـذه المنظمات ليست شركـات هـدفها الربح؛ بل هي بمثابة نـاد أو هيئة مالية لاستقطاب البنوك الراغبة في إصدار البطاقة.

وعموما فإن المنظمة العالمية تغطي مصاريفها كاملة من خلال:

- إيرادات الاشتراك (العضوية) للأعضاء.
- الإيرادات ربع السنوية.
- ثمن بعض البرامج التي تقدمها المنظمة.
- الرسوم على بعض الخدمات»[٩].

ومـن الممكـن تخـريج الكثـير مـن أحكـام البطاقـات التحفيزيـة التـي اسـتحدثتها الـشركات المعـاصرة، منهـا عـلى سـبيل المثـال بطاقـات شركـة واوچر (Wawchar) و شركة بول والا (Bol Wala) و بطاقات الرصيد (Balance Card) وغير ذلك، على كل، هذا بعض، و ما سواه كثير، لا يسعه هذه العجالة، و لكنها تشتمل على الأصول التي يمكن تقعيد المستجدات الأخرى من هذا الباب عليها.

* * *

الهوامش:

(١) المعايير الشرعية: المعيار الشرعي: رقم (٢٢)، عقود الامتياز، طبع هيئة المحاسبة و المراجعة.
(٢) المرجع السابق.
(٣) مجلة مجمع الفقه الإسلامي- (١٣٢٨٨/٢).
(٤) المرجع السابق.
(٥) كما في سجل الفتاوى الصادرة من دارالإفتاء بجامعة دارالعلوم كراتشي، برقم: (١٥٥١/١٥بتصرف).
(٦) الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار) - (٥٦٠/٤).
(٧) المعاييرالشرعية:٢٤.
(٨) المرجع السابق.
(٩) مجلة مجمع الفقه الإسلامي- (٢٣٥٢١/٢).

ثمرات الأخوة

بقلم: **الأستاذ محمد حسين يعقوب**

لو صحت لنا الأخوة الإيمانية المرجوة، لو سعينا في زرع بساتينها في قلوبنا لأثمرت فينا حياة أخرى غير تلك التي نحياها، فإنَّ القلوب تحيا وتترابط وتتآلف فيورثها الله من النعيم ما لا يستشعره إلا من ذاقه.

فمن ذلك:

(١) أن يتذوق حلاوة الإيمان فيحيا حياة السعداء

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»[١].

فحينئذٍ يستشعر لذة الطاعة وتحمل المشقة في رضا الله ورسوله، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، فالقلب السليم من أمراض الغفلة والهوى يجد طعم الإيمان كذوق الفم طعم العسل، ولا ينال المرء هذه الثمرة حتى تتحقق فيه ثلاث خصال ترجع إلى واحدة – أعني إيثار الله ورسوله على كل شيء – فلا شيء أحب إليه من الله ورسوله، ولا تعلق له بأي إنسان إلا من خلال الحب في الله، ولا أكره إليه من حياة الجاهلية والكفر والعصيان، وحينها يباشر قلبه ما يعجز اللسان عن بيانه، فإنه لا يحتمل الوصف؛ بل لابد أن تمر بك هذه المشاعر حتى تعرف مدى روعتها وجمالها.

اللّٰهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

(٢) أن يحيطه الله تعالى برحمته، ويقيه عاديات وشدائد يوم القيامة

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نفَّس عن مؤمن كُربةً من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة»[٣]. فمن أدى حقوق الأخوة أحاطه الله

بعنايته ورعايته.

(٣) نيل الأمن والسرور وأن الله يظله بظله يوم القيامة

فمن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(٤).

(٤) الأمن من الوقوع في الشرك

فلا يتسرب إلى من يحب في الله الإشراك بالله جَلَّ وعلا، فلا يقع في الشرك –أعنى شرك الأنداد–.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ اَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوَا اَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(البقرة:١٦٥).

فالذي يحبك في الله يحبك لأنك عبد الله، أمَّا الآخر فقد يحبك كحب الله أو ربما أكثر، فيحبك لأَنَّك تشترك معه في معصية أو نحو هذا، فربما يشرك بذلك.

الموحد هو الذي يحب لله، فحبه لك نابع من حبه لله، من طاعتك لله، فإذا عصيت الله أبغضتك في الله، وبذلك ينضبط التوحيد في قلبك، وهذا هو حقيقة «الولاء والبراء»، وهذا من أغلى الثمرات وأعظمها «ثمرة التوحيد».

(٥) أن يرزق العبد محبة الله

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ»(٥).

(٦) زيادة الدرجات في الجنة حتى يصل لمنازل الأبرار

أخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه وأقره عليه الذهبي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه قال: ثم إن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قضى صلاته أقبل علينا بوجهه فقال: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أنَّ لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله».

فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا نبي الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟! انعتهم لنا – يعني صفهم لنا – فسُرَّ وجه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لسؤال الأعرابي.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يصنع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورًا، وثيابهم نورًا، يفزع الناس يوم

القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون»[٦].

انظــر لقولــه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تحــابوا في الله وتصافوا» صارت قلوبهم صافية، ليس فيها غل ولا حقد ولا ضغينة ولا بغضاء ولا شحناء ولا حسد لأحد من المسلمين؛ فيرفع الله درجاتهم في الجنة بذلك، وهذه من الثمرات العظيمة للأخوة.

(٧) اطمئنان القلب والأمن من أهوال يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿الاخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).

(٨) النجاة لكل من تمسك بهذه العروة الوثقى

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[٧].

(٩) صفاء السريرة ونقاء القلب

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[٨].

فإنَّ الحب في الله يدل على كمال الدين، ويثمر ذلك من صفاء السريرة، وإتقان العمل، والخوف من الله، وتقديس كتبه، وحب سنة نبيه ما يزيد الإيمان ويبعث على نقاء القلب وسلامته.

الهوامش

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٦) ك الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم (٤٣) ك الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) الحديث السابق.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٦٠) ك الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلة وفضل المساجد ومسلم (١٠٣١) ك الزكاة، باب إخفاء الصدقة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٥/٢٣٣/٢٤٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/٨٠-٨١)، والحاكم في المستدرك (٤/١٨٦) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه (٢/٣٣٥) برقم (٥٧٥)، وصححه الشيخ الألباني – رحمه الله – في صحيح الجامع (٤٣٣١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٥/٣٤٣)، والحاكم في المستدرك (٤/١٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، عن أبي مالك الأشعري. وبنحوه الطبراني في الكبير (٣/٢٩٠) عن أبي الدرداء. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٧٧): رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٢١٥) برقم (١١٥٣٧) وحسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١٧٢٨).

(٨) تقدم تخريجه.

* * *

التربية بالثواب والعقاب

بقلم: **الدكتور عبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد**

مـن أسـاليب التربيـة التـي يتفـق عليهـا علـماء التربية: التربية بـالثواب والعقـاب وهـو أمر فطري، وجد عناية في التربية الإسلامية فها هي آيات القرآن لاتكـاد تخلـو صـفحة مـن وعـد بـالثواب للطـائعين ووعيد بالعقاب للعاصين ... فالجنة أعدت للمتقين والنـار أعـدت للكـافرين، وهـذا المـنهج القـرآني لـه أروع الأثر في النفوس وتربيتها وتهذيبها، وكم تربَّتْ نفـوس المـؤمنين وزكـت بآيـات القـرآن لمـا وعتهـا وفهمـت حقيقتهـا فـصاروا يعبـدون ربهـم ويدعونـه رغبًـا ورهبًـا، وأوجـدت صـور الوعيـد في نفوسـهم عبوديـة الخـوف وأحيـت صـور الوعـد في نفوسـهم عبوديـة الرجـاء، والخـوف والرجـاء كجنـاحي طـائر قطبـان في العبـادة، وتهـذيب الـنفس والـسلوك لابـد منهما. يقـول الـدكتور يوسـف النجـار مبينًـا مقاصـد هذا المبدأ: «ويقصد الإسلام من هذا المبدأ تصحيح الـسلوك الإنـساني والرجـوع بـه إلى الحـق والـصواب والبعد به عن السيئات وما يغضب الله سبحانه، كما أن العقـاب مبنـي عـلى الـشفقة والرحمـة بالإنـسان وليس المقصود به إيذاؤه في نفسه وإنما رحمة به؛ لأن الإنـسان معـرض لأن يرتكـب الخطـأ جـراء الجهـل والنسيان»[1] ولنعرض لشيء من النصوص في هذا استمع إلى القـرآن في وعيـده يقـول: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُوا رَبَّكُـمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا اَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَـٰرَى وَلَكِنَّ عَـذَابَ اللَّهِ شَـدِيدٌ﴾[2] وعيـد تفـزع لـه القلـوب وترتدع النفوس، واستمع إلى القرآن في وعده يقول: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَـوْمَ وَلَا اَنتُمْ تَحْزَنُـونَ * الَّـذِينَ آمَنُوا بِاٰيَـٰتِنَا وَكَـانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ اَنْتُمْ وَاَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَاَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الاَنْفُسُ وَتَلَذُّ الاَعْيُنُ وَاَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي اُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[3] وعـد يبعـث الرجـاء ويحفـز عـلى العمـل، وكـذلك كـان مـنهج النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يربط القلوب بالآخرة ونعيمها وثوابها الدائم وهذا

فارق بينه وبين المناهج والأنظمة المادية التي تربط الفرد بالثواب المحدود؛ لكن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جمع بين خيري الدنيا والآخرة فهو يعطي من الدنيا عطاء من لا يخشى الفقر ويعِد بثواب عظيم وأجر جزيل في الآخرة. ورد في الحديث «أن رجلا سأل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأعطاه غنمًا بين جبلين فجاء إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لايخشى الفقر»(٤) وقد أعطى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين المال الكثير الذي كان سببًا في إسلامهم وحبهم للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودينه حتى أن صفوان بن أمية قال: «والله لقد أعطاني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ماأعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي»(٥).

هكذا كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يؤلف القلوب ويعالج القلوب، وهو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يفعل ذلك بحكمة ويعطي بحكمة ويجعل الدنيا طريقًا للآخرة وسببًا للسلامة من النار. روى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعطى رهطًا وسعد جالس فيهم، قال سعد: فترك رسول الله منهم من لم يعطه وهو أعجبهم إلي، فقلت: يارسول الله، مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلما» قال: فسكت قليلًا ثم غلبني ما علمت منه، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنًا. فقال رسول الله: «أو مسلمًا» إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النارعلى وجهه»(٦) انظر كيف يعطي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بحكمة ورحمة، وكيف يؤلف القلوب ويقربها ويرغبها للحق وإن جانب الثواب الأخروي في الأمثلة كثيرٌ جدًا فمنها قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(٧) ومن هذا الباب أيضًا ما ورد في قصة عبد الله أنيس -رضي الله عنه- عندما أرسله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لقتل خالد بن نُبيح الهذلي فخرج إليه عبدالله بن أنيس فاحتال عليه فقتله ثم جاء إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأعطاه النبي ﷺ عصا وقال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلّ الناس يومئذ المتخصرون يعني المتكئون قال الراوي: فقرنها عبدالله بن أنيس بسيفه فلم تزل معه حتى مات ثم أمر بها فضمت في كفنه ثم دفنا جميعًا»(٨).

وقد يكون الثواب معنويًا أو دعاء وله دوره وأثره في النفوس واستعمل ذلك النبي ﷺ في مواطن كثيرة: فقد قال لسعد بن أبي وقاص في معركة أُحد: «ارم فداك أبي وأمي»[٩]. ومَرَّ ﷺ على قوم ينتضلون[١٠] فقال: ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان...»[١١] الحديث والأمثلة في هذاالباب كثيرة.

أما التربية بالعقوبة فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يغفل عن هذا الجانب وهو أنواع، فقد تكون العقوبة بتغير الوجه وقد تكون بالإعراض عن الشخص وقد تكون بالتأنيب و الذم وقد تكون بالهجر وبما هو أشد من ذلك.

فمن الأول ماورد عن عائشة -رضي الله عنها- أنها اشترت خرقة فيها تصاوير فلما رآها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام على الباب فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهة، فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله -ﷺ-: ما بال هذه الخرقة؟ قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون فيقال لهم: أحيوا ماخلقتم، وقال: إن البيت الذي فيه صورة لاتدخله الملائكة» أخرجه البخاري[١٢] فهذه عائشة رضي الله عنها تأثرت هذا التأثر العظيم لما رأت تغير وجه رسول الله ﷺ وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم بحساسيتهم وشدة حرصهم على رضا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يعرفون ذلك منه فكانوا يعرفون كراهيته للشيء عندما يتغير وجهه فسرعان مايغيرون ماهم عليه وفي هذا أمثلة كثيرة يضيق البحث عن تتبعها.

وقد يرى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من بعض أصحابه ما يكره فيعرض عنه بوجهه تأديبًا له وكراهة لفعله، ولهذا أمثلة كثيرة أيضا[١٣].

أما التأنيب فمن ذلك قصة أسامة بن زيد -رضي الله عنه- عندما قتل رجلًا بعد أن قال: لاإله إلا الله فوقع في نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أقال: لاإله إلا الله وقتلته؟ قال قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[١٤].

ومن هذا قصة أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي «اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله

صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام. قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. وفي رواية فقلت: يارسول الله، هو حرٌّ لوجه الله فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»(١٥).

ومن العقوبة بالذم قصة أبي ذر رضي الله عنه عندما سابَّ مملوكًا فعيَّره بأمه فقال النبي ﷺ: «أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس». فكان أبو ذر بعد ذلك يُلْبس غلامه حُلة كالتي يلبس(١٦).

أما عقوبة الهجر فتتمثل واضحة في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ولم يكن لهم عذر، فنهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن كلامهم يقول كعب رضي الله عنه: فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهم يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله -ﷺ- فأُسلم عليه وهو في المسجد بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسّورت جدار حائط أبي قتادة «وهو ابن عمي وأحب الناس إلي» فسلمت عليه فوالله ماردَّ السلام علي فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هلا تعلمني أحب الله ورسوله فسكت، فعدت فنشدته فسكت فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت. ولما مضى أربعون ليلة إذا رسول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يأتيني فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك ولاتقربها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن كلامنا، فلما صليت الفجر وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال الذي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ توبة

الله علينا حين صلى صلاة الفجر.... قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله، وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وَرسوله، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت: يارسول الله إن الله نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أُحَدِّث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى يومي هذا كذبًا. وإني لأرجو الله أن يحفظني فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآيات أخرجه البخاري ومسلم[17] هذه قصة كعب بن مالك رضي الله عنه وقد اجتزأت منها المقصود، وفيها عبر كثيرة وفوائد جمة فانظر كيف استطاع المربي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يجعل هؤلاء الذين أخطأوا في سجن من غير أن يسجنهم، فضاقت بهم الأرض على سعتها وتعدّى ذلك الضيق إلى أنفسهم وليس هذا انتقامًا منهم ولا بغضًا وكراهية لهم إنما تربية وتأديبًا من محب وتنفيذ لأوامر الرب سبحانه الذي دبّر ذلك وأنزل فيه آيات تتلى ولذلك فرِح صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أشد الفرح لما تاب الله عليهم. ولقد كان لهذا الهجر أثره على الثلاثة - رضي الله عنهم- حيث تابوا وأنابوا.. فهذا كعب رضي الله عنه يلتزم الصدق في كل أقواله فيما يستقبل من أيامه، وأراد أن يخرج من ماله صدقة لله ورسوله ثم صارت هذه القصة عبرة تدل على عظم المعصية وخطرها.

قال ابن حجر -رحمه الله- في فوائد القصة: وفيها عظم أمر المعصية. وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء مالًا حرامًا ولا سفكوا دمًا حرامًا ولا أفسدوا في الأرض أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر[18].

وهذه القصة تدل على قوة التربية النبوية لمجتمع الصحابة -رضي الله عنهم- فها هم رضي الله عنهم يتفاعلون مع هذه القصة فيلتزمون أمر

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم الحديث مع هؤلاء الثلاثة حتى إن قريب كعب بن مالك لم يرد السلام عليه ولم يُجِبه إلا لما ألحَّ عليه بقوله: الله أعلم . ثم لما نزلت توبة الله على الثلاثة وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فرح الصحابة -رضي الله عنهم- واستبشروا وتسابقوا لبشارة الثلاثة وهنؤوهم بصورة رائعة تدل على تراحم المجتمع المسلم وتآلفه.

ولقد كان هذا التأديب والهجر خيرًا لهؤلاء أراده الله بهم ففي الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا وإذا أراد الله به شرًا أمسك عنه عقوبته فيرد القيامة بذنوبه»(١٩) وهكذا كانت هذه القصة عبرًا ودروسًا ينبغي أن يعيها المربون ويستفيدوا منها في تربية الأجيال.

* * *

الهوامش

(١) النهج التربوية للعلماء والمربين المسلمين للدكتور: يوسف النجار ص١٠٨،١٠٧.

(٢) سورة الحج الآية: ١-٢.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٦٨-٧٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ك: الفضائل ب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا و كثرة عطائه (٤/١٨٠٥) ح:٢١٣٢.

(٥) انظر صحيح مسلم ك: الفضائل ب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا (٤/١٨٠٦) ح: ٢٣١٣.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ك: الإيمان ب: تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١/١٣٢).

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ك: الأدب ب: في حسن الخلق (٥/١٥٠) ح: ٤٨٠٠ وإسناده حسن.

(٨) أخرج القصة أحمد في المسند (٣/٤٩٦) وأبو داود في السنن ك: الصلاة ب: صلاة الطلب رقم ١٢٤٥ مختصرة وإسنادها حسن. وأخرجها البيهقي في الدلائل (٤/٤٠) وقد حسن ابن حجر سند القصة (الفتح٧/٤٤٠).

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه ك: الجهاد ب: المجنّ ومن يترس لصاحبه (فتح ٦/٩٣-٩٤).

(١٠) يتتضلون: أي يرمون للسبق انظر النهاية في غريب الحديث (٥/٧٢).

(١١) أخرجه البخاري ك: الجهاد ب: التحريض على الرمي (فتح ٦/٩١).

(١٢) انظر البخاري ك: البيوع ب: التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء. فتح (٤/٣٢٥) وانظر مثالًا آخر لهذا النوع أخرجه البخاري فتح (١/٥١٣).

(١٣) انظر مثلًا مسند الإمام أحمد (٣/١٤) وسنن أبي داود ك: الأدب ح: ٥٢٣٧ (٥/٤٠٢) والنسائي (٨/١٧٠) وابن حبان رقم (٥٤٨٩).

(١٤) أخرجه مسلم في صحيحه ك: الإيمان ب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله الا الله ح: ١٥٨ (١/٩٦).

(١٥) أخرجه مسلم ك: الإيمان ب: صحبة المماليك (٣/١٢٨٠-١٢٨١).

(١٦) أخرجه البخاري ك: الإيمان ب: المعاصي من أمر الجاهلية (فتح١/٨٤).

(١٧) أخرجه البخاري ك: المغازي ب: حديث كعب بن مالك (٨/١١٣) ومسلم ك: التوبة ب: توبة كعب بن مالك وصاحبه (٤/٢١٢١).

(١٨) فتح الباري (٨/١٢٣).

(١٩) أخرجه أحمد في المسند (٤/٨٧) من حديث عبد الله بن مغفل. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. وله شاهد من حديث عمار بن ياسر عزاه الهيثمي للطبراني وقال: إسناده جيد (مجمع الزوائد ١٠/١٩١-١٩٢).

الســـــرف

بقلم: **الأستاذ عبد الله بن إبراهيم الطريقي**

التعريف بالسرف

قال ابن فارس(ت ٣٩٥ هـ): «السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف أي مجاوزة القدر»[١] وجاء في تاج العروس: «السرف محركة: ضد القصد... وقيل: هو تجاوز ما حد لك «والإسراف في النفقة: التبذير ومجاوزة القصد. وقيل: أكل ما لا يحل أكله، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقيل: الإسراف: وضع الشيء في غير موضعه، أو هو ما أنفق في غير طاعة الله عزّوجلّ.

وأسرف في الكلام: أفرط، والإسراف أيضًا: الإكثار من الذنوب والخطايا»[٢].

ذلك تعريف السرف لدى علماء اللغة.

فهو: تجاوز حد الاعتدال، ووضع الشيء في غير موضعه.

وقد أدرج في التعريف اللغوي معانٍ شرعية تؤول إلى المعنى اللغوي، مثل التعريف بأكل ما لا يحل أكله، والإنفاق في غير طاعة الله.

لذا ننتقل إلى المعنى الشرعي للسرف.

قال الراغب الأصفهاني(ت ٥٠٢ هـ): «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان:٦٧][٣] ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦][٤] ويقال تارة اعتبارا بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: «ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١][٥] ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤٣][٦] أي المتجاوزين الحد في أمورهم»[٧].

وقريب من هذا قول الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) في تعريف الإسراف بأنه: «مجاوزة الحد في كل فعل أو قول وهو في الإنفاق أشهر»[٨].

ويعرفه بعضهم: «بأنه صرف الشيء فيما لا ينبغي زائدا على ما ينبغي»[٩].

وجــاء في منــال الطالــب في شرح طــوال الغرائب: «السرف: التبذير، ووضع العطاء في غير أهله، وقد أسرف يسرف إسرافا، والسرف: الاسم.

قال بعض السلف: كل ما أنفقته في طاعة الله فليس بسرف وإن كثر، وما أنفقته في غير طاعته فهو سرف وإن قــلَّ»[١٠]. وقــال الإمــام الطــبري (ت٣١٠هـ) : «أصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير»[١١].

ومجمل ما تقدم

١- أن الــسرف هــو مجــاوزة القــصد وحــد الاعتدال وهذا نفسه المعنى اللغوي.

غير أن هنا تفسيرًا بمعناه العام وهو تجاوز القصد في كل قول أو فعل. وهو في هذا البحث مقيد بالجانب المالي أو الاقتصادي.

٢- ثم إن الإسراف في هذا الجانب يقال تارة باعتبار القدر أو الكم وتارة بالكيفية، حسب إشارة الأصفهاني السابقة.

٣- وأن ما أنفق في غير طاعة الله فهو سرف بإطلاق قَلَّ أو كثر، وهذا يدخل في الإسراف في الكيف.

٤- وما أنفق في المباحات فما تجاوز القصد فهو سرف، وهذا سرف في الكم.

٥- وأما ما أنفق في طاعة الله ففي الإسراف فيه نظر، وستأتي له إشارة.

وكأن التعريفات السابقة لا تفرق بين لفظتي السرف والإسراف، وهو الظاهر.

غير أن بعض أهل العلم يفرق بينهما فيجعل الإسراف: «مــا لم يقــدر عــلى رده إلى الــصلاح، والسرف: ما يقدر على رده إلى الصلاح»[١٢] ويرى الطبري أن الإسراف هو الإفراط، والسرف هو التقصير[١٣]. ولم يظهر لي هذا التفريق.

وفي سياق إبراز حقيقة السرف يرد السؤال التالي: هل الإسراف في الإنفاق في طاعة الله يعد إسرافًا مذمومًا؟.

لقد سبق قول بعض السلف: «ما أنفقته في طاعة الله فليس بسرف وإن كثر».

وفي هذا المعنى قيل لحاتم الطائي: «لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير»[١٤].

ويذهب بعض العلماء إلى عدم مشروعية السرف في هذا لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١][١٥] فقد ورد في سبب نزول الآية أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمس مئة فجذها

ثـم قـسمها في يـوم واحـد ولم يـترك لأهلـه شـيئا فنزلت... ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام:١٤١][١٦].

قال الإمام الطبري: بعد أن ساق الخلاف في معنى الآية الكريمة:

«والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله - تعالى ذكرُه - نهى بقوله:..﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعـام:١٤١] عـن جميـع معـاني الإسراف ولم يخـصص منهـا معنـى دون معنـى، وإذا كـان ذلـك كـذلك، وكـان الإسراف في كـلام العـرب: الإخطـاء بإصابة الحق في العطية، إما بتجاوز حده في الزيادة وإما بتقصير عن حده الواجب - كان المفرق ماله وباذلـه للنـاس حتـى أجحفـت بـه عطيتـه مـسرفًا بتجاوزه حد الله إلى ما ليس له، وكذلك المقصر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سهمان الصدقة إذا وجبت فيه أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما ألزمه منها، وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه، كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون»[١٧].

والـذي يظهـر أن الإسراف مـذموم حتـى وإن كان في الخير، هذا هو الأصل، لكن بشرط أن يترتب عـلى هـذا الإسراف نـوع إجحـاف عـلى المـسرف في نفسه أو من يعـول. أمـا إذا لم يترتـب عليـه شيء من ذلك فليس بسرف[١٨].

قال البخاري(ت ٢٥٦ هـ) في صحيحه: «باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ومن تصدق وهو محتاج أو أهله محتاج أو عليه دين، فالدين أحق أن يقضى من الصدقة والعتق والهبة، وهو رد عليه ليس له أن يتلف أموال الناس، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أخـذ أمـوال النـاس يريـد إتلافهـا أتلفـه الله» إلا أن يكـون معروفا بالـصبر فيؤثر على نفسه ولـو كـان به خـصاصة كفعـل أبي بكـر -رضي الله عنـه- حـين تصدق بماله، وكذلك آثر الأنصار المهاجرين، ونهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إضاعة المـال، فليس لـه أن يضيع أموال الناس بعلة الصدقة»[١٩].

ونقل الحافظ ابن حجر(ت ٨٥٢ هـ) هنا عن الطبري قولـه: «قال الجمهور: من تصدق بماله كله في صـحة بدنـه وعقلـه حيـث لا ديـن عليـه، وكـان صـبورًا عـلى الإضـاقة ولا عيـال لـه، أو لـه عيـال يـصبرون أيـضًا فهـو جـائز، فـإن فقـد شيء مـن هـذه الشروط كره، وقال بعضهم: هو مردود»[٢٠].

ومما يـدل عـلى صـحة النفقـة بكـل المـال إذا لم يكـن في ذلك إضرار قولـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق...»[٢١] الحديث. قال ابن المنير(ت ٦٨٣ هـ)

فيما نقله عنه ابن حجر: «في هذا الحديث حجة على جواز إنفاق جميع المال وبذله في الصحة والخروج عنه بالكلية في وجوه البر، ما لم يؤد إلى حرمان الوارث ونحو ذلك مما منع منه الشرع»(٢٢).

ضابط السرف: ومن متممات مفهوم السرف وحقيقته معرفة تطبيق ذلك على واقع الحال.

فإن مما هو معروف أن الناس متفاوتون في الغنى والفقر وفي طبيعة المتطلبات. فهذا غني وذاك فقير، وبينهما درجات.

وهذا يعيش منفردا بنفسه، وآخر يعيش معه أسرة صغيرة، وثالث معه أسرة كبيرة، وهذا ذو جاه ومكانة بين قومه، وآخر ليس كذلك... وهكذا، يضاف إلى ذلك الأعراف السائدة في كل بلد أو قبيلة.

فكل ذلك - وما أشبهه - لا بد من مراعاته عند الحكم على تصرف الإنسان المالي بأنه إسراف أو تقتير أو وسط بينهما.

يقول القرطبي(ت ٦٧١ هـ) عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩] «وهذه من آيات فقه الحال فلا يبين حكمها إلا باعتبار شخص من الناس» وعلى هذا فمعرفة الإسراف من عدمه تعود إلى العرف والعادة، والعادة مُحَكَّمة كما يقول علماء الفقه وأصوله.

* * *

الهوامش

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ١٥٢.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي: ٢٣ / ٤٢٨ - ٤٣٣.

(٣) الفرقان: ٦٧.

(٤) النساء: ٦.

(٥) الأنعام: ١٤١ والأعراف: ٣١.

(٦) غافر: ٤٣.

(٧) المفردات في غريب القرآن ص٢٣٠ - تحقيق محمد سيد الكيلاني.

(٨) فتح الباري ١٠ / ٢٥٣.

(٩) الكليات للكفوي ص١١٣.

(١٠) منال الطالب لابن الأثير ص٣٢٢ تحقيق الدكتور محمود الطناحي.

(١١) تفسير الطبري: ٧ / ٥٧٩ تحقيق محمود شاكر، وقد عد الإمام الطبري التقصير من جملة الإسراف - كما تلحظ - ولم أجد من تابعه على ذلك.

(١٢) تفسير الطبري ٧ / ١١١.

(١٣) ينظر: تفسير الطبري ٧ / ٥٧٩.

(١٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٧ / ١١٠.

(١٥) الأنعام: ١٤١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري ١٢ / ١٧٤. الطبعة المحققة.

(١٧) تفسير الطبري ١٢ / ١٦٧، وتلحظ هنا أن الطبري جعل منع حق المال إسرافا وفي هذا تجوز من الطبري رحمه الله.

(١٨) يراجع: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي الشافعي ٤ / ٣٥١.

(١٩) صحيح البخاري، ك: الزكاة - الباب ١٨.

(٢٠) فتح الباري ٣ / ٢٩٥.

(٢١) رواه البخاري في صحيحه، ك: الزكاة الباب ٥.

(٢٢) فتح الباري ٣ / ٢٧٧.

آداب الطب في التراث العربي الإسلامي

بقلم: **الأستاذ الدكتور سليم عمار**(*)

قبل ذكر التوجيهات التي سطّرها الأطباء العرب حول آداب الطب والأخلاقيات التي ينبغي أن يتحلّى بها الطبيب لابدّ من التذكير بوجهة النظر الإسلامية في هذا الصدد حيث إن الطب العربي الإسلامي لم يقتصر على الأخذ بتعاليم أبقراط أو بتعاليم الفرس والهنود والصينيين فحسب؛ بل كان متشبّعا بالقيم الأخلاقية والدينية السامية التي تغذّى بثمارها مثل كلّ النشاطات التي ميّزت الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية.

فكان الطبيب الذي يحمل أمانة الإسلام وأمانة المحافظة على صحة البشر في آن واحد هو أولى الناس أن تكون تربيته سليمة ويكون سلوكه مستقيمًا والتزامه بالأخلاقيات جزءًا لا يتجزأ من طبعه وشخصيته، وهذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها أمّهات الفضائل منها الصبر والاحتمال، والقناعة، والاعتدال، وفعل البرّ والإحسان، والمغفرة والسلوان، ومنها الحياء والصدق، والرحمة والرفق، والكلام الطيّب والابتسام، واجتناب العيب والاحتشام، والتسامح والتواضع، والرصانة في كلّ المواضع، وغير ذلك من الجوانب الأخلاقية التي تمسّ عمل الطبيب أكثر من غيره في علاقته مع المرضى المساكين والأغنياء سواء أكانوا كبارًا أم صغارًا على اختلاف الأجناس والأعمار.

* * *

هذا ويمكن إجمالًا تحديد أربعة أبواب في مجال آداب الطب وأخلاقيات الطبيب العربي المسلم.

(١) الشهادة الطبية والقسم الطبي

فإجازة ممارسة المهنة كانت من الالتزامات المطلوبة كي يكون الطبيب قادرًا على مزاولة صناعته من الوجهة العلمية والعملية حيث كانت تسحب منه إن وجد منه تقصير، فكان أوّل من اشترط هذه الإجازة هو سنان بن ثابت في زمان الخليفة المقتدر سنة ٣١١هـ/٩٢٣م ببغداد. وبقيت هذه الإجازة شرطًا أساسيًا لمباشرة الطّب حتّى نسج على هذا المنوال روجير الثاني، ثم فريدريك الثاني بصقلية في القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين إلى أن عمّت هذه القاعدة كلّ الربوع فيما بعد.

هذا ولقد اشتُرط أيضا على كلّ من يريد ممارسة الطّب أن يؤدي قسما طبيّا يقطع به عهدًا على نفسه. وهذا القسم يشمل أغلب فقرات قسم أبقراط مع بعض التعديل والتحوير، لجعله أكثر ملاءمة للمفاهيم الإسلامية الداعية لمواقف الفضيلة

(*) أستاذ شرفي للطب النفسي الجامعة التونسية.

والطهارة، وللأخلاق الجميلة والمهارة.

ولم يلتزم الأطباء العرب بقسم واحد؛ بل نرى في كتبهم أنماطًا عديدة تدور جميعًا حول المفهوم الأخلاقي نفسه والذي يجعل قدسيّة المهنة الطبية فوق كلّ الاعتبارات، والمعلوم أنّ مبادئ قسم الطبيب ترجع إلى قيم أصيلة وعريقة، نجدها في المجتمعات الحضارية القديمة، من حضارة مابين النهرين إلى حضارات مصر العتيقة والفارس والهند والصين.

حيث إنّ الأبحاث تدلّ اليوم على أنّ قسم أبقراط ليس بقسم يوناني محض؛ بل ينبثق من أصول صناعة الطب في مجتمعات الشرق الأوسط والشرق الأقصى على السواء.

كما هو معروف أنّ قسم أبقراط قد ترجمه وكيّفه من اليونانية إلى العربية العالم العراقي حبيش ابن الأعصم (الذي يعدّ من أنجب تلاميذ حنين ابن إسحاق وأقاربه).

وقد نجد لهذا القسم فصلاً وافيًا عند ابن أبي أصيبعة (القرن الثالث عشر الميلادي) في كتابه عيون الأنباء لطبقات الأطباء. وقد دخل هذا القسم فيما بعد إلى اللاتينية ثم إلى اللغات العالمية الحيّة، ورجع إلينا في صيغته الإنكليزية أو الفرنسية بعد بعض التغييرات. وقد وقع والحمد لله تكييفه وتعريبه من جديد في غالب البلدان العربية.

هذا مع العلم أنّ الطب يتطوّر اليوم خاصّة مع الاكتشافات المهولة التي أدّت بها العلوم الحياتية والكيمياء الحيوية وعلم الجينات وأن ضرورة تعديل وإقرار قسم دولي موحّد أصبحت من مشكلات الساعة في آداب الطب وخاصة في الأقطار العربية الإسلامية. هذا ومن جهة أخرى ومهما كان الحال فإنّ الطبيب لايمكنه أن يؤدي وظيفته إن لم يجتهد طيلة حياته.

(٢) إتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي

حيث كتب في ذلك أبوالحسن بن سهل الطبري الذي يقال: إنّ الرازي تتلمذ له. قال: «إنّ طول التجارب زيادة في العقل» كما يقول أبوبكر الرازي في هذا المضمار «الحقيقة في الطب غاية لاتدرك والعلاج بما تنصّه الكتب دون أعمال الماهر الحكيم برأيه خطر» مضيفًا هذا القول الرصين والذي يجوز في كل زمان ومكان: «الأطباء الأميّون والمقلّدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته قتّالون». وكان الرازي يقول في الاستشارة بين الأطباء وتنسيق الآراء بينهم: «من تطبّب عند كثير من الأطباء أو شك أن يقع في خطأ كلّ واحد منهم».

ولقد اتّسم الرازي بالذكاء والفطنة والهدوء والرصانة وبحبّ الرحمة والعدل وبالإقلال من محاكمة الناس بالإضافة إلى الرفق بالفقراء والمرضى وحسن تعهّده للطلاّب.

أمّا الشيخ الرئيس ابن سينا فهو يقول في مقدّمة كتاب النجاة: «إنّ أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السّكنات الصيام، وأرفع البرّ الصدقة، وأزكى السير الاحتمال، ولن تخلص النفس عن الدّرن ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال،

وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ماصدر عن خالص نيّة، وخير النيّة ما ينفرج عن جناب علــم، والحكمــة أمّ الفــضائل، ومعرفــة الله أوّل الأوائل».

كما أنّ من وصايا رشيد الدين علي بن خليفة قوله: بأنّ «الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين، وقلّما فيه اليقين، وجزاها القياس والتجربة، لا السفسطة وحبّ الغلبة، ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة، وردّها إذا كانت مفقودة، فيها يتبيّن سلامة النظر ودقّة الفكر، ويتميّز الفاعل عن الجاهل، والمجدّ في الطّب عن المتكاسل، والعامل بمقتضى القياس والتجربة، عن المحتال عن اغتناء المال وعلو المرتبة».

أمّا عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧هـ/١١٦١م) ذلك العلاّمة الشهير المعاصر لموسى بن ميمون القرطبي فيقول: «ومن لم يتحمّل ألم التعليم لم يذق لذّة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح».

ولقد جدّد القلقشندي بدوره في بلاد الشام في القرن السابع الهجري أركان تعليم الطبّ وأثبتها بمزيد من الحكمة. ولقد كان يشترط في الطبيب «أن يتحلّى بالإيمان وشرعة التقوى». وفي رئيس الأطباء العلم والمعرفة والدراية بالإضافة إلى الأمانة والعناية.

(٣) حسن الهيئة والأخلاق

يقول في ذلك ثابت بن قرّة الحرّاني وهو العالم الفلكي البارع في الرياضيات والطب والفلسفة الذي نبغ في زمان المعتضد العباسي: «إن راحة الجسم في قلّة الطعام، وراحة النفس في قلّة الآثام، وراحة القلب في قلّة الاهتمام، وراحة اللسان في قلّة الكلام».

كما يقول علي بن العباس في كتابه «كامل الصناعة» في نفس الصدد: «ينبغي لمن أراد أن يكون طبيبا فاضلا أن يتحلّى بالأخلاق الفاضلة وأن لايتهاون فيها، فإنّه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب».

هذا وبعد زمان الرازي بقليل كان في تونس أحمد ابن الجزّار الذي اتّسمت شخصيته بالاستقامة والعفّة والتواضع وبالرحمة في كل المواضع. فكتب في الأطفال والفقراء وفي الشيوخ والبؤساء. وكانت سيرته الذاتية كما هو معلوم مثلًا اقتدت به أجيال الأطباء في الديار التونسية مثل الأطباء الصقليين الذين أشرفوا على صناعة الطب بتونس طيلة قرنين متواليين، فكانوا بدورهم محلّ التقدير والإكبار، من الكبار والصغار، كما كان الشأن لأعلام حكماء المغرب والأندلس أمثال الزهراوي وبني زهر وابن طفيل وابن رشد وغيرهم.

هذا وفي المشرق العربي بين علي بن رضوان المصري رئيس أطباء القاهرة زمان الفاطميين كافّة الصفات المثلى الجسدية والنفسية للطبيب. فأكّد بدوره على التزام الطبيب بحسن الهيئة واللباس والاستقامة أمام جميع الناس، وكان يضع الطبيب في منزلة قد تساوي أو تفوق منزلة الأمراء والملوك إذ يقول: «إذا كان الطبيب الفاضل يعالج الفقراء احتسابا، والأغنياء اكتسابا، وكان حاذقًا في صناعته

بارعًا فيما يتولّاه متواضعًا للناس فأحبّوه وعظّموه ورفعوه ومجّدوه».

وكانت نظرة ابن رضوان إلى الطّب تتميّز بالمثالية المطلقة لذا نجده في كتابه «في شرف الطّب» يعدّ الطبيب وليًا من أولياء الله الصالحين. وفي المجال نفسه يقول الحكيم أبوالخير في كتابه «امتحان الأطبّاء»: «إنه يجب أن يكون الطبيب حسن القدّ، صحيح الأعضاء، معتدل المزاج، جيّد التصوير، قويّ الحدس، صبورًا على التعب والنصب، كتومًا، متحمّلًا مايسمعه من المرضى».

كما أنّ إسماعيل الجرجاني (القرن السادس الهجري) صاحب موسوعة «ذخيرة خوارزم شاه» التي كتبها بالفارسية وقد وضعها بعضُهم في مكانة كتاب «القانون» لابن سينا. كان يقول بالعربية لصديق له: «إنّ الجسد هو أخبث مسكن للنفس، صعب المقادة عَسرِ الإجابة لقوّتك العاقلة التي تؤديك جنّة المأوى، وترقيك الدرجة العليا».

ويعدّ داود الأنطاكي (القرن العاشر الهجري) من أواخر أطباء العرب العظام. وكان ينصح الطبيب بالقناعة والعفّة وترك الملذّات «لتكون نسبته إلى الناس بالسواء، خليّ القلب من الهوى، لايقبل الارتشاء، ولا يفعل حيث شاء، ليجتنب الخطأ، وتستريح إليه النفوس من العناء».

والآن وبعد عرض الواجبات والالتزامات نصل إلى الباب الرابع والأخير المتمثل في الحقوق والمراعاة وفي الحظوظ والالتباسات التي تعلّقت سابقًا وتتعلّق اليوم بالطبيب من عديد الصفات.

(٤) حقوق الطبيب ونظرة المجتمع إليه

وقد يستنتج في هذا المجال من دراسة تراجم الأطباء العرب والمسلمين أنّهم تمتّعوا إجمالا بالمكانة اللائقة بهم، فنالوا الاحترام من الأمراء والأدباء والفقهاء ومن عامّة الناس، وبلغوا مراتب سامية حتّى غير المسلمين منهم. وقد قدّر القوم الأطباء حقّ قدرهم؛ لأنّهم كما يقول ابن أبي أصيبعة: «إذا التزموا لما يجب من حقوق صناعة الطّب يكونون مبجّلين في الدنيا ولهم الدرجة العليا في الآخرة».

ومع هذا فإن البعض من أعلامهم تعرّض إلى نكبات الدهر ومكائد الزمان وإلى المضايقة والطغيان، فهذا قد حُرقت كتبه، وذا قد عرف المنفي والسجون، هناك من تَعَاطَى في الشوارع التنجيم قصد المعاش، وهناك من نبغ ولم يحظ بالمنية على الفراش؛ بل مات شنقًا أو مسمومًا أو في الاحتياج، ولم يجد الرحمة والانفراج، مثل أبي بكر الرازي وعلي ابن رضوان المصري والحسن بن الهيثم بالنسبة للصنف الأوّل وإسحاق ابن عمران ولسان الدين ابن الخطيب وابن باجه ونجيب الدين السمرقندي بالنسبة للصنف الثاني.

ومع هذا فقد بقي هؤلاء الأعلام أحياء عند ربّهم وعبر الأجيال يرزقون، وبالمدح والإجلال يتمتّعون، هذا وقد تناوبت الأجيال في تاريخ الأمة العربية الإسلامية تتقهقر فيها القيم الفاضلة، وتتسرّب إليها الرذائل الشرسة، من حين لآخر عبر الزمان والمكان ولم تخلُ الأمة من الشعوذة والتدجيل، ومن المغالطة والتزوير، منذ أوج

الحضارة الإسلامية حتى العصور الحالكة، ذلك أنّ صناعة الطّب من أخطر الوظائف، تضبطها حدود الاجتهاد البشري ومافيه من نقصان وقصور، ومن نسيان وفتور، ومقصودها الجوهري هو إنقاذ الأرواح البشرية وكأنما يُطلب من الطبيب أن يصبح من طائفة الملائكة؛ بل حتّى من صفّ الآلهة أحيانًا إلى حدّ أنّه كان ولايزال يتأرجح بين صفات الخير والشرّ مثل «جانوس» الذي اشْتَهر عند الروم بوجهين وجه الخبث والعدوان، ووجه العفّة والإحسان.

فإن ابتعد الطبيب عن صفات الاستبشار والكمال، وإذا انزلق في هاوية الاستهتار والإغفال، فسرعان ما يتجلّى وجهه الشرير، ويسقط في أسفل المعايير، إلى أن يُرمى به في المأزق المريد.

* * *

وختامًا فلا يسعنا إلّا أن نذكّر بأن الطّب لاينفع دون أخلاق ثابتة، حيث إنّ الطبيب لن يكون ماهرًا وحكيمًا، إن لم يكن أساسًا طاهرًا ورحيمًا، لذا ولكي يصبح شهيرًا بحكمته، عليه أن يكون غفورًا برحمته، كما أنّ النشاط العلمي ينبغي أن يتحلّى بالصدق والعفّة وبالتفاني والرحمة، ومهما تقدّم العلم فينبغي دوما أن نميّز بين ضرورة البحث العلمي والاكتشافات من جهة وضرورة تطبيق هذه الاكتشافات لصالح المجموعة من جهة أخرى لا لِلْمَسّ بسلامتها وتعريضها لَلأخطار، أو لإصابتها بالتشويه والدّمار.

وعلى كلّ حال وفي نطاق آفاقه الواسعة وحدوده الراسخة فإنّ الأطباء العرب ليجدون في تعاليم تراثهم التليد أثمن الأحكام والعبر، لاجتناب الزلّة والضرر، انطلاقًا من مأثور أعلام أجدادهم الأمجاد، الذين سطّروا وأناروا لهم طريق الحكمة والرّشاد، كما فتحوا لهم أوسع المناهج والسبل، وأروع المكاسب والمثل، فعليهم اليوم أن يواجهوا تحدّيات الساعة، بكلّ دراية وشجاعة، كي يُوَفّروا لأفراد أمّتهم العزّة والمناعة.

* * *

المراجع

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء لطبقات الأطباء – دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥م، ص٤٥-٤٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء لطبقات الأطباء، ص٣٥١.

(٣) عبد اللطيف محمد العبد: رسالة في أخلاق الطبيب لأبي بكر الرازي/ مكتبة دار التراث – القاهرة ١٩٧٧.

(٤) نفس المصدر: لابن أبي أصيبعه عدد١، ج٣، ص٤١٣.

(٥) عبد اللطيف البغدادي: مقالتان في الحواس/ تحقيق د. بول غليونجي ومحمد عبده، ص١٦٩، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣.

(٦) عمر موسى باشا: آداب الطب عند العرب في العصر الوسيط/ أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم/ معهد التراث العربي/ جامعة حلب ١٩٨٠/ من ص ١٤٠ إلى ١٤٩ – انظر كذلك القلقشندي: صبح الأعشى، ص٣٧٨.

(٧) أحمد عيسى بك: المأثور من كلام الطباء/ مطبعة جامعة فؤاد الأوّل ١٩٥١، ص١٢.

(٨) علي بن عباس المجوسي: كامل الصناعة، ص٨.

(٩) أحمد بن ميلاد: تاريخ الطب العربي التونسي/ شركة ديميتر ٨ شارع خير الدين باشا تونس ١٩٨٠.

(١٠) سلمان قطاية: الطبيب العربي علي بن رضوان – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ تونس ١٩٨٤م، ص٦٢.

(١١) ابن جلجل: طبقات الحكماء/ تحقيق فؤاد السيّد – مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥، ص١٥٨.

(١٢) أحمد عيسى بك: نفس المصدر عدد ٥، ص٨٤.

(١٣) داود الأنطاكي: التذكرة في الطب، ص٨.

* * *

أمريكا تعرب عن قلقها على أوضاع الحرية الدينية في الهند
مسؤول رفيع المستوى في الخارجية الأمريكية يجتمع بوزير الخارجية والسفير الهنديين، ويعرب عن قلقه على الأوضاع الراهنة في الهند

بقلم: أبو عاصم القاسمي المباركفوري

واشنطن (الوكالات)

أعربت أمريكا عن قلقها على أوضاع الحرية الدينية في الهند، وأثارت القضية أمام المسؤولين الهنود. جاء ذلك وسط الاحتجاجات الكاسحة لطول الهند وعرضها ضد قانون الجنسية المعدل الجديد. قال مسؤول رفيع المستوى في الخارجية الأمريكية – شريطة عدم الإفصاح عن هويته-: إنه اجتمع بالسلطات الهندية، وأعرب عن قلقه على الأوضاع الراهنة في الهند. وكان المسؤول الأمريكي الذي زار الهند في الأيام الأخيرة، قال أمس للصحفيين: نحن قلقون على ما يحدث في الهند.جاءت تصريحات وزارة الخارجية الأمريكية هذه في أعقاب إصدار وزير الخارجية الأمريكي تقريرًا يخصُّ الحرية الدينية في٢٧/دولة في العالم.

وقال المسؤول الأمريكي: قد طلبنا منهم المساعدة في بعض القضايا، و التعاضد على حلها.

قال المسؤول الأمريكي: أول خطوة أخطوها في هذا المجال في معظم الحالات أن أتساءل الدول: كيف يمكننا أن نساعدكم على حل هذه المشاكل؟

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة/ميروت، ص١، السنة:٨، العدد:١، الجمعة ١٢/جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق٧/فبراير ٢٠٢٠م).

الشرطة تمارس العنف ضد المتظاهرات والمعتصمات و تستخدم العصي والهراوي وعبوات مسيلة الدموع، وتملأ مكان الاعتصام ماء، وتعتقل عشرات في مديرية أعظم كره

شهدت قصبة بلريا كانج من مديرية «أعظم كره» بولاية «أترابراديش» تجمعات نسائية مكثفة على شاكلة «شاهين باغ» من دهلي العاصمة، تحتج ضد قانون الجنسية المعدل الجديد(CAA)، و(NRC) و(NPR)، فاستخدمت الشرطة المحلية القوة ضدهن، وطردتهن من مكان الاعتصام والاحتجاج، كما اعتقلت عشرات من المتظاهرين أيضا. أثارت خطوات الشرطة هذه غضبًا عارمًا في سكان المنطقة.

تفيد الأنباء أن الشرطة حاولت إقناع المتظاهرات والمعتصمات بإلغاء التظاهرات والاعتصامات ثم حصلت تناوشات بينها وبين المتظاهرات والمعتصمات، وتراشقوا الأحجار، فاستخدمت الشرطة الهراوي وعبوات مسيلة للدموع، واعتقلت ١٨/ شخصًا بمن فيهم امرأة.

ويقول المتظاهرون: إن التظاهرات والاعتصامات كانت تقوم بصورة سلمية؛ ولكن الشرطة مارست العنف ضدهم بإيماء من الحكومة المحلية.

(صحيفة «سچ كي آواز» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص١، السنة:٢، العدد:١٤، الخميس١١/جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق ٦/فبراير ٢٠٢٠م).

النادي الأدبي يعقد لقاءً ختاميًا في رحاب الجامعة

بقلم: **أبو فائز القاسمي المباركفوري**

عقد النادي الأدبي – لجنة طلابية عربية- اللقاء الختامي لنشاطاته في رحاب الجامعة بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة ١٨/من جمادى الآخرة عام ١٤٤١هـ =٣٠/يناير عام٢٠٢٠م، رأسه فضيلة الشيخ المقرئ محمد عثمان - أحد كبار أساتذة الحديث بالجامعة والمشرف الأعلى على النادي.

بدأ اللقاء بتلاوة آيات من القرآن الكريم تشرف بها الأخ/محمد صادق السهارنفوري بصوته العذب. وقدم البرنامج الأخوان: حق نواز، وشاه جهان.

ومن أبرز الفقرات التي تضمنها اللقاء: مساجلة شعرية ومديح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلمات وخطب، وحوارات حول موضوعات ساخنة على الساحة المحلية والدولية. وممن حضر اللقاء كل من فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني – رئيس الجامعة- وفضيلة الشيخ عبدالخالق السنبهلي – وكيل الجامعة-، ومن أساتذة الجامعة كل من الأستاذ / سلمان البجنوري، والأستاذ/ محمد ساجد، والأستاذ/مصلح الدين، والأستاذ/ أشرف عباس.

وجاءت فقرات اللقاء بصفة عامة على غاية من الروعة والإتقان، مما يدل على الجهود المبذولة من الطلاب والمشرفين على النادي الأدبي في صقل مهاراتهم وتعزيز قدراتهم العربية على مختلف المستويات.

وفي كلمته القيمة القصيرة زود فضيلة رئيس الجامعة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني -حفظه الله- الطلاب بنصائح غالية تشكل معالم في طريق العلم والدراسة وفي الحياة العملية أيضا. وأعرب فضيلته عن فرحه الغامر بجهود الطلاب المشاركين في البرنامج.

كما دشَّن فضيلته أول عدد من جريدة فصلية تصدر عن النادي الأدبي على كل ثلاثة أشهر – بإذن الله تعالى- بأقلام شباب قسم اللغة العربية وآدابها، ويرأس الجريدة الأستاذ/ محمد ساجد القاسمي أحد أساتذة الجامعة والمشرف على النادي، بمساعدة كل من الأستاذ/مصلح الدين، والأستاذ/ أشرف عباس.

وانتهى اللقاء بدعاء من فضيلة الشيخ المقرئ محمد عثمان حفظه الله.

* * *

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

ومن الأسباب التي تُعِين على كسب القلوب صفةُ العفو عن الزَّلَّات، والتقيّد بنفسية التسامح، وتغليبُها على نفسية المساءلة والمؤاخذة. قال الشاعر الحماسي، وهو سالم بن وابصة الأسديّ الأمويّ:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَىٰ كَرِيمًا مُكَرَّمًا
أَدِيبًا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًّا
إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ
فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُذْرًا

ولَازِمْ سيرةَ إهداء الهديّة إلى الآخرين، ولو كانت قليلةَ السعر؛ لأنها تحمل قيمةً معنويّةً لا تُقَدَّر بثمن، ولا تحمل قيمة مادية، قال النبي -ﷺ-: «تَهادَوْا تَحَابُّوا» (الأدب المفرد:٥٩٤).

وتَحَدَّثْ مع الآخرين في مجال اهتمامهم وتَخَصُّصِهم؛ لأن المرءَ يميل إلى من يحاوره في مجال اهتمامه. ولا يغيبنّ عن بالك أن تظلّ دائمًا متفائلًا، وتنشر فيمن حولك البشرى ومعاني التفاؤل والسعادة وروح الانفتاح. وإذا أَحْسَنَ أحدٌ أيَّ عمل يعنيك فلا تَبْخَلْ بمدحه؛ لأنّ المدحَ له أثر كبير في النفس إذا لم تَشُبْه المبالغةُ. ولا بدّ أن تكون في حديثك مع الناس لَبِقًا أديبًا، تنتقي الكلمات، وتُهَذِّب لغةَ الحديث؛ فالكلمةُ الحلوةُ الحسنةُ خيرُ وسيلة لاستمالة النفوس وكسب القلوب.

وحَاوِلْ أن تتواضع مع الناس دائمًا، لأن التواضع يجعل الناس يُجِلُّونك ويحبونك؛ فهم ينفرون ممن يستعلي عليهم ويَتَصَنَّع في فرض عظمته عليهم.

عن عياض بن حمار -رضي الله عنه- عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إنّ اللهَ أَوْحَىٰ إليّ أن تواضَعُوا حتى لا يَبْغِيَ أحدٌ على أحد ولا يَفْخَرَ أحدٌ على أحد» (رواه مسلم:٢٨٦٥).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مال، وما زَادَ اللهُ عبدًا بعفو إلّا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أحدٌ لله إلّا رَفَعَه اللهُ» (مسلم:٢٥٨٨).

ومن الخصال الحميدة التي تُحَبِّب المرأَ إلى الناس اجتنابُ تَصَيُّدِه لعيوب الآخرين وانشغالُه بإصلاح عيوبه هو؛ لأنه مُطَالَبٌ بإصلاح نفسه، وعنها يُسْأَل قبل غيرها. قالله تعالى:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام:١٦٤).

ونِعْمَ ما قال الشاعر:

المَرْءُ إِنْ كَانَ عَاقِلًا وَرِعًا
أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ وَرَعُهُ
كَمَا الْعَلِيلُ السَّقِيمُ أَشْغَلَهُ
عَنْ وَجْعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهُ

ومن يتصف بهذه الصفة الحميدة – المُتَمَثِّلَة في انشغاله بعيوبه عن عيوب غيره – يكسب حبَّ الناس، لأنهم يرتاحون إليه، كما يحبه الله ويجزيه

جزاءً حسنًا بأن يستر عيوبَه ولا يفضحه أمام الناس.

وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَيَحْجُزْكَ عن الناس ما تَعْلَمُ من نفسك» (مشكاة المصابيح ٤٨٦٦).

ومن الخصال الحميدة المُسَاعِدَة على كسب القلوب، الإنصات والاستماع؛ لأن الناس يحبّون من يُصْغِي لهم، لأن الإصغاءَ من سمات التحضّر والأدب والمروءة، ويدلّ على أهميّة الاستماع أنّ الله خَلَق لنا أذنين ولسانًا، فحاجتُنا إلى الإنصات والإصغاء ضِعْفُ حاجتنا إلى الحديث، والانصات يعني أنك تُوَجِّه الاهتمامَ إلى من يقوله الآخر، وأنك تهتم كثيرًا بما يقوله، وأنك تُصْغِي إليه لئلا تضيع أيُّ كلمة مما يقوله، وأنك تحترمه، وتُولِيهِ العنايةَ اللائقةَ.

وروى ابنُ سعيد عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال يصف رسولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كان إذا لَقِيَه أحدٌ من أصحابه فتَنَاوَلَ أذنَه، نَاوَلَه إيَّاها، ثم لم يَنْزِعْها حتى يكون الرجل هو الذي يَنْزِعُها عنه» (صحيح الجامع: ٤٧٨٠).

ولكي أُجَسِّد لك أهميّةَ التعامل اللطيف الجميل مع كلّ أحد، ودوره في إيجاد الحبّ والأنس، أنك إذا دخلتَ مجلسًا فيه جمعٌ من الناس، فمررتَ بهم، وسَلَّمْتَ عليهم، وبدأتَ تُصَافِح واحدًا واحدًا منهم، فالأول نَاوَلَ يديك بطرف من يمناه، ورَدَّ على تحيتك ببرود، وقال: أهلًا.. أهلًا في غير اندفاع نفسيّ. والثاني صَافَحك بإحدى يديه متشاغلًا بحديث مع من عن يمينه أو يساره دون أن ينظر إليك. والثالث مَدَّ إليك يديه في غير اهتمام بك ولم يَنْبِس ببنت شفة. والرابع نَهَضَ إليك وتَلَقَّاك بترحاب حارّ، وصافحك مبتسمًا في وجهك، وفي عينيه إشراقةُ فرح غامر، وكأنّه وَجَدَ فيك كلَّ ما كان يتطلع إليه من أمان لذيذة وآمال عزيزة. ثم ألحمتَ ما أسديتَ من مبادلة السلام مع الآخرين في المجلس، وتَبَوَّأْتَ مقعدَك في ناحية منه، وقلبُك ينجذب إلى ذلك الرجل الرابع انجذابَ قطعة حديدية إلى المغناطيس؛ لأنه جعلك أسيرًا له بسيرته الطيبة وتعامله الحسن، رغم أنه لم يكن بينك وبينه سابقُ تعارف أو لقاء،ولم يتمالك قلبَك بمال، أو بجاه، أو بوظيفة سامية، أو بحسب أو نسب؛ لأنك لا تعرف حتى اسمَه، وإنما تَمَالَكَك بجميل تعامله ولباقة تصرّفه، وخلقه الكريم الذي وَسِعَ به كيانك كلَّه. فتَأَكَّدَ أنّك لن تقدر على كسب القلوب بالقوة المادية، أو بوسائل الحياة كلها، أو بثروتك الفائضة، أو بكل ما لديك من الجنود والبنود، وإنما تقدر على كسبها -إذا شِئْتَ- بقوة مكارم الأخلاق، والتعامل اللَّبِق الذَّكِيّ الحَسَن، الذي يُغْفِله كثيرٌ من الناس في تصرّفاتهم الاجتماعيّة.

(تحريرًا في الساعة الرابعة والنصف عصرًا من يوم الخميس: ٤/جمادى الآخرة ١٤٤١هـ، الموافق ٣٠/يناير ٢٠٢٠م).

* * *

كسب القلوب فن لبق

كسبُ قلوب الناس غرضٌ أَسْمَىٰ وأنبلُ يهفو إلى تحقيقه جميعُ أفراد المجتمع: جاهلُهم وعالمُهم، أُمِّيُّهُم ومُثَقَّفُهم، على اختلاف التوجّهات والنزعات، والميول والرغبات، والأعمال والنشاطات. كلٌّ يَوَدُّ أن يكون محبوبًا لدى الجميع، حتى يُطَاع فيما يقول، ويُنَفَّذ ما يأمر به، ويُتَّقَى ما ينهى عنه، ويُعْمَل بما يُوَجِّه به من تعليمات، ويُحَقَّق ما يرغب فيه من أغراض، وما يَتَصَدَّى له من أهداف.

ولكنّ مُعْظَم الناس لا يُتَاح لهم أن يَكْسِبُوا القلوبَ، ويَتَحَبَّبُوا إلى الناس؛ لأن هذا الغرض الأشرف يتوقّف تحقُّقُه بنحو أساسي على المروءة والأخلاق، وهي صفةٌ يَقِلُّ من يتّصف بها، وبشكل فرعيّ على كثير من الأمور التي لا يتعامل بها إلّا أُلُو حظّ عظيم من الناس، وهم قليلون؛ ولكنهم سُعَدَاء، وكان على رأسهم سيّد الخلقِ النبيُّ الخاتمُ محمد -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- الذي كان قدوةً، تَمَثَّلَتْ فيها هذه الأمورُ كلُّها في أسمى معانيها؛ ولذلك انجذبت إليه القلوبُ، وتَرَامَتْ عليه النفوسُ، وأحبَّته الأعداءُ فضلًا عن الأصدقاء.

وقد حَضَّ النبيُّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- على التعامل مع الناس بالأخلاق فقال: «إنكم لن تسعوا الناسَ بأموالكم، فَسَعُوهم بأخلاقكم» (مصنف ابن أبي شيبة: ٢٥٣٣٣).

ومظاهر الأخلاق تَسَع الحياة كلَّها بنشاطاتها كلّها، فلك أن تبتسم في وجه كل من تُقَابِله، فالابتسامةُ لها مفعولٌ سحريٌّ، ودورٌ عظيمٌ في استمالة القلوب واسترضاء النفوس؛ ولك أن تبدأ بالتحية والسلام على الآخرين، لأنها تُطْمَئِنُهُمْ وتُهَيِّئُهم لحبّك والإقبال عليك.

ولا تَنْسَيَنَّ أن تُعَامِل الناسَ كما تُحِبُّ أن يُعَامِلُوك، فأَظْهِرِ الاهتمامَ بهم، والتقديرَ لهم، وبَادِرْ إلى قضاء حاجات الآخرين؛ لأن ذلك جِسْرٌ مُبَاشِر إلى قلوبهم؛ حيث إنّ النفوس تميل لا مَحَالَةَ إلى من يَقْضِي حاجاتها ويَسْعَى لتوفير ما تحتاج إليه من الوسائل والأسباب.

(البقية على ص٥٤)

أبو أسامة نور
nooralamamini@gmail.com